

روح الاجتماع

غوستاف لوبون

روح الاجتماع

روح الاجتماع

تأليف
غوستاف لوبون

ترجمة
أحمد فتحي زغلول



روح الاجتماع

غوستاف لوبون

Psychologie du Socialisme

Gustave Le Bon

رقم إيداع ٢٠١٣/١٧١٧٧
تدمك: ٨ ٤٢٢ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

الغلاف: تصميم إيهاب سالم.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Kalimat.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

مقدمة

بقلم أحمد فتحي زغلول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله.

قرأت مؤلفًا جديدًا للعالِم الفرنساوي المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب)، وضعه في بيان أحوال الجماعات وما يَعرِض للفرد مجتمِعًا من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به، وسماه (روح الاجتماع). ورأيت في نقله إلى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف في ذلك فتفضل بالإجازة.

طُلب مني أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفًا مما اشتمل عليه، فترددت كثيرًا ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم. وإذا كنت نقلت الكتاب إلى العربية نقلًا صادقًا صحيحًا فإن معانيه تنساب في نفس قارئيه من دون احتياج إلى شرح ولا رجوع إلى بيان.

إهداء الكتاب

إلى تيوفبل ريبو مدير المجلة الفلسفية وأستاذ علم النفس في المدرسة الفرنساوية.

علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب، والآن نبحث في الحالة النفسية للجماعات.

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلالٍ تتولد في أفراده بالتوارث، لكن إذا اجتمع عدد من أولئك الأفراد للقيام بعمل من الأعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال الشعب، وقد تختلف عنها في كثير من الأوقات اختلافًا كبيرًا.

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير في حياة الأمم، إلَّا أن هذا التأثير لم يبلغ في زمن من الأزمان مبلغه في الزمن الحاضر؛ فقد حلَّ في أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الأفراد المقصود لأربابه بالطبيعة، وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة.

وإني أحاول البحث في موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة، أعني أنني أريد أن أتبع فيه نسقًا مؤسسًا على قواعد العلم غير ملتفت إلى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الأمور المسلَّم بها؛ لأني أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة.

ولا سيما إذا كان الموضوع مما يشغل الأفكار مثل موضوعنا.

فالعالِم الذي يرمي ببحثه إلى تقرير أمر من الأمور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح — قال عني أحد الكبار المفكرين وهو موسيو (جويليه دالفيالا) في كتاب نشرناه حديثًا إني كثيرًا ما خالفت في نتائج أبحاثي ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية؛ لأني لست تابعًا لواحد منها، وإني لأرجو أن يكون

حظ كتابي هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه إذ الانضام إلى مذهب يقتضي التحيز إليه والتزام ما فيه من الأوهام.

على أني أرى من الواجب أن أوضح للقراء السبب في أنني أستخلص من بحثي نتائج تخالف التي يظهر بادئ بدء أنها نتائجه اللازمة، كتقريري مثلًا انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التي تتألف من نوابغ أهل الفضل، وذهابي مع ذلك إلى أنه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها.

ذلك لأن إطالة التأمل في حوادث التاريخ دلتني دائمًا أن المجتمعات الإنسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء، فليس في يدنا أن نحولها فجأة من حال إلى حال، نعم يتفق أن تُحدث الطبيعة تغييرًا كليًّا فجائيًّا، إلا أن ذلك لا يكون تابعًا لإرادتنا أبدًا، لذلك كان حب بعضهم للإصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات في الأمم مهما دلَّ النظر على حسنها؛ لأنها لا تكون مفيدة إلَّا إذا كان في الإمكان تغيير روح الأمة تغييرًا فجائيًّا، والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان، والذي يحكم الناس مجتمعين إنما هي الأفكار والمشاعر والعادات، وكلها أمور موجودة فينا، وحينئذٍ ليست القوانين والنظامات إلَّا صورة من صور النفس العامة التي لنا وممثلة حاجاتها، وإذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهي لن تستطيع تغييرها.

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث في الأحوال الاجتماعية عن البحث في الأمم التي ظهرت تلك الأحوال فيها؛ لأنه إن صح نظرًا أن لهذه الأحوال قيمة مطلقة فمن المحقق أن قيمتها عملًا نسبية دائمًا.

لذلك ينبغي عند البحث في حال من أحوال الاجتماع أن يُنظر إليها من جهتين مختلفتين تمامًا، وحينئذٍ ينجلي للباحث أن تعاليم النظر المحض تخالف غالبًا تعاليم النظر العملي، وليس من النتائج حتى نتائج الأبحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة إلَّا يسيرًا. انظر إلى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صورًا حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطًا دقيقًا، لكنها قد تحضر أمام العين بصور مختلفة، فقد ترى المكعب هرمًا أو مربعًا، وقد ترى الدائرة قطعًا ناقصًا أو خطًّا مستقيمًا. ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك الصور الحقيقية؛ لأنها هي التي تتراءى أمامنا وهي التي يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا، ومن هنا جاز القول بأن الصوري حقيقي أكثر من الحقيقي في بعض الأحوال لأن تشخيص الأشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين،

فلو فرضنا عالمًا لا يسعهم إلا رسم الأشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لَتَعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية في أذهانهم، على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل — أعني العلماء — لا يفيد إلا فائدة صغيرة جدًّا.

إذن وجب على الحكيم الذي يبحث في الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الأحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية، وأن الأولى هي التي لها شيء من الأهمية في تطور المدنيات، وملاحظة ذلك تقتضي الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق إليه الاستنتاج المنطقي بادئ بدء.

وهناك أسباب أخرى تدعو إلى هذا الحذر: منها أن الأحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل، ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جدًّا، إذ يظهر أن الأولى ليست إلا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا، وهو في الغالب فوق بحثنا، فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التي تُترجِم فوق سطح البحر عما هو واقع في جوفه من الاضطرابات التي خفيت عنا. ونحن إذا نظرنا إلى الجماعات نراها تأتي من الأعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطًا كليًّا، غير أن لها أعمالًا أخرى يظهر أنها منقادة فيها بقوة خفية سماها الأقدمون قدرًا أو طبيعة أو يدًا صمدانية، وسماها أهل هذا الزمان (صوت من في القبور)، وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وإن جهلنا كنهها، وكثيرًا ما يظهر أن في باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها أنك لا تجد شيئًا أكثر تعقيدًا ولا أدق ترتيبًا وأجمل خلقًا من اللغة، وما مصدر هذا الشيء الغريب في نظامه العجيب في أسلوبه إلا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة. وأعلم المجامع العلمية وأرقى النحويين إنما يجهدون النفس في تدوين قواعد اللغات، وهم لا شك عاجزون عن خلقها، كذلك لسنا على يقين من أن الأفكار السامية التي يحدثها النابغون من فطاحل القوم إنما هي عملهم خاصة، نعم هم الذين أوجدوها، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن ذرات التراب التي تراكمت فصارت منبتًا لتلك الأفكار إنما كونتها روح الجماعات التي وجد أولئك النابغون فيها.

تتجرد الجماعات دائمًا عن الشعور بعملها، وقد يكون هذا هو السر في قوتها على أنا نشاهد في الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الإلهام تأتي بأعمال دقيقة يحار الإنسان في معرفة جليل صنعها، ذلك أن العقل جديد في الوجود الإنساني وفيه نقص كبير، فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الأفعال اللاشعورية، فما بالك إن حاولنا وضع غيرها في

مكانها أن نَصيب اللاشعور في جميع أعمال الإنسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية، والأول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا.

وعليه إذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة في معرفة الأشياء من طريق العقل ولا نهيم في أودية التخمينات المبهمة والفرضيات العقيمة لزمنا، أن نقتصر على تقرير الحوادث التي تقع تحت حواسنا، وكل استنتاج مبني على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعًا في غالب الأحيان؛ لأنه يوجد خلف الحوادث التي نراها جيدًا حوادث لا نراها رؤيا ناقصة، وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلًا.

تمهيد

زمن الجموع

يخال الناظر في أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التي تتقدم تطور المدنية في الأمم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسي عظيم كغارة الأمم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا، لكن بعد إنعام النظر في هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة في الغالب سببًا حقيقيًّا هو التغير الكلي في أفكار تلك الأمم، فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هي التي تدهش الباحثين بعظمها وعنفها، وإنما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذي يؤدي إلى تغيير حال الأمم المدنية يحصل في الأفكار والتصورات، والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة في بطون التواريخ ليست إلا آثارًا ظاهرة لتغير خفي في أفكار الناس، وإذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث، فذلك راجع إلى أن أشد أخلاق الأمم رسوخًا عندها هو التراث الفكري الذي ورثته عن آبائها.

وأحرج الأزمان في تطور الفكر الإنساني زماننا هذا، ولهذا التطور عاملان أصليان:

الأول: تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة.

والثاني: قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية.

ولما كان تهدُّم الأفكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها، وكانت الأفكار التي ستحل محلها في دور تكونها؛ كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى.

ومن المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يومًا من الأيام من هذا الوقت المشوش، كما أننا لا نعرف حتى الآن على أي الأفكار الأساسية والمبادئ الأولية يقوم بناء الأمم التي تخلفنا. ولكن الذي نراه منذ الساعة أنه سيكون أمام تلك الأمم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها؛ لأنها أكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات، تلك القوة التي قامت حتى الآن وحدها على أطلال الأفكار البالية التي كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثوراتُ المختلفة كل سلطة كانت تتحكم في الناس، وهي القوة التي يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها في القريب العاجل. ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن أساسها، وأن أساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم، وأن سلطة الجماعات هي وحدها التي لا يهددها طارئ، بل هي تعظم وتنمو، وعليه فالدور الذي نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة.

كان المؤثر في الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها، ولم يكن لرأي الجموع وزن يُذكر، بل لم يكن له قيمة أصلًا في الغالب. أما الآن فالسياسة التقليدية هي التي أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك، بل صارت الغلبة لصوت الجماعات، فهو الذي يرسم للملوك خطتهم وهو الذي يجتهد الملوك في الإصغاء إليه، وأمسى مصير الأمم راجعًا إلى ما تحمله روح تلك الجماعات لا إلى ما يراه أصحاب مشورة الأمراء.

فجلوس طبقات الأمم على عرش السياسة، أعني تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها، هو من أخص مميزات زمن التحول الذي نحن فيه، وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور؛ لأن هذا الحق بقي ضعيف الأثر زمنًا طويلًا، وكان في مبدأ أمره سهل القياد، وإنما تولدت سلطة الجماعات رويدًا رويدًا بانتشار بعض الأفكار التي رسخت في الأذهان أولًا وبتدرج الأفراد في تكوين الجماعات للوصول إلى تحقيق تلك النظريات ثانيًا. فالاجتماع هو الذي ولَّد في الجماعات قوة إدراك منافعها، ومع كونه ليس إدراكًا تامًّا فهو ثابت متين، والاجتماع هو الذي جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان، وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التي تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الأخرى، وغرف التجارة (البورصات) التي تطمح إلى السيطرة على العمل وأجور العمال، وإن خالفت في حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة.

والجماعات هي التي تبعث اليوم إلى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال، فلا يكون لهم من الرأي إلا ما رأته اللجان التي انتخبتهم.

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى في مراتب الوضوح، وهي لا ترمي إلى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأسًا على عقب لترجع بها إلى حالة الاشتراك الأولى التي كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية. تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والأطيان، وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء وإحلال الطبقات الوضعية محل الطبقات الرفيعة ... وغير ذلك.

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير، وقد أصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى، وعما قريب يكون للمذاهب التي نراها اليوم في دور التكون من السلطان العظيم على الأفكار ما للمذاهب التي رسخت أصولها في الاعتقادات، أعني سلطانًا مستبدًّا لا تأثير فوق تأثيره، فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال، وحينئذٍ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الأقدسين.

ولقد استولى الهلع على قلوب الكُتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى في الأمم، وهم الذين يمثلون أكثر من غيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبني على التأمل الصحيح، وحب الذات البالغ غايته، فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذي أخذ ينمو ويعظم، ومالوا إلى مقاومة ما استحوذ على الأفكار من الاضطراب، فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الأدبي وتأثيرها الروحي بعد أن بالغوا في احتقارها وغالوا في إهمال جانبها ونادوا بإفلاس العلم في طريق تهذيب النفوس، فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا إلى الرجوع للتمسك بحقائق الوحي والتنزيل، وفات أولئك المتدينين من جديد أن الوقت قد فات، وإذا صح أن الفيض الإلهي أخذ من نفوسهم، فإنه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيرًا بما يقلق ضمائر أولئك الزهاد، فلم تعد ترغب في الأرباب التي رغبوا هم عنها بالأمس وكان لهم نصيب في تحطيمها، وليس في طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الإلهية جعل مياه الأنهار تصب في ينابيعها.

ما أفلس العلم ولا ذنب له في فوضى الأفكار التي انتشرت في هذا الزمان ولا في سلطة الجماعات التي تنمو وسط تلك الفوضى، إنما العلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الأقل بيان النسب التي تربط الأمور بعضها ببعض مما تقدر على إدراكه، لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة أبدًا. والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل إليه صراخنا، وإنما نحن

الذين يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على الاتفاق معه، إذ لا شيء يقدر أن يعيد لنا تلك الأوهام التي فرَّت أمام نوره.

توجد علامات عامة ظاهرة في جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نموًّا لا رجاء في وقوفه آجلًا، ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا، فكل قول فيه باطل لا فائدة منه، ومن الجائز أن تولي الجماعات قياد الأمم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب، فيرجع إلى الانغماس في أودية الفوضى التي يخال أنه لا بد لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول إلى دور الحضارة والرقي، ولكن أين السبيل إلى منع ما هو كائن.

ينحصر الأثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن في هدم صروح المدنية، فالتاريخ يدلنا على أنه كلما وهنت القوى الأدبية التي يقوم عليها بناء تقدم أمة من الأمم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التي سميت بحق متبربرة، أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر، ولكنا لم نر حتى الآن للجماعات أثرًا مثل هذا، فهي إنما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام؛ لأن المدنية لا تقوم إلا على مبادئ مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة إلى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل، ومرتبة راقية من العلم والتهذيب، وتلك وسائل برهنت الجماعات على أنها غير أهل لتحقيقها إذا تركت وشأنها. ومثل الجماعات في قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الأجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الأجساد الميتة، فإذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها، هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادئ بدء أن العامل في حوادث التاريخ هو كثرة العدد.

إنا لنخشى أن يكون هذا أيضًا مصير مدنيتنا، لكن ذلك الذي لا نعرف منه شيئًا حتى الآن.

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات؛ لأن أيديًا طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التي كانت تمنع من طغيانها.

كثر الكلام على الجماعات ونحن لا نعرف من حالها إلا يسيرًا؛ لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها، فجهلوا أمرها على الدوام، وإنما اشتغلوا بها في الأيام الأخيرة من جهة ما قد ترتكب من الجرائم والآثام. نعم توجد جماعات شريرة، إلا أن هناك أيضًا جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة ... وهكذا، فالنظر إليها من حيث الشر وحده

نظر للشيء من جهة واحدة، ولا يتصل الباحث لمعرفة إدراك الجماعات ببحثه في الجرائم التي قد تصدر عنها، كما أنه لا يتوصل إلى معرفة إدراك الفرد بالبحث في عيوبه خاصة.

ومع ذلك فإن الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الأديان وأسسوا الدول ورُسُلَ المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة، كانوا دائمًا من علماء النفس وهم لا يشعرون، فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية، وكانت تلك المعرفة صادقة في أغلب الأحايين، ومعرفتهم لذلك جيدًا هي التي مكنتهم من السيادة عليها. كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية في البلاد التي انبسطت يده عليها، ولكنه جهل غالبًا روح الجماعات في شعوب أخر، كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فإنهم أيضًا لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الأجنبية عن أمتهم، فقد كتب له (تايلران) أن إسبانيا تلاقي جيوشه لقاء المنجدين، فلما زحفت إليهم استقبلهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة، ولو أنه كان على شيء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال. ذلك هو السبب في أن نابليون قام في بلاد الإسبان وفي بلاد الروسيا على الأخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه.

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم آخر ملجأ يأوي إليه السياسي العظيم، لا لأجل أن يحكمها، فقد صار ذلك الآن صعبًا كثيرًا، بل ليخفف عنه شدة تأثيرها.

وإذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات في الجماعات، فإنما السبيل إلى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية، وبذلك نفقه أيضًا أنه لا قدرة لها على تكوين رأي أو التفكير في شيء خارج عن الدائرة التي رسمت لها، وأنها لا تقاد بقواعد العدل النظرية، بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها. فلو أراد وازع فَرْضَ ضريبة جديدة وجب عليه أن لا يختار التي هي أقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد في ذاتها، فربما كان أبعدها عن العدل أكثرها قبولًا بالفعل عند الناس، فإن كانت هذه الأخيرة أيضًا أقل وضوحًا وأخف حملًا في الظاهر، كان ذلك أدعى إلى قبولها؛ لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لأنهم يؤدونها تدريجًا على أقسام صغيرة عند شراء حاجاتهم اليومية، فهي لا تضيق عليهم فيما ألفوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيرًا غير محمود، فإذا بُدلت هذه الضريبة بضريبة الإيراد أو الأجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب، ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لأن مبلغًا ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يُدفع بالتدريج يومًا بعد يوم ووجب أداؤه دفعة واحدة، وفي ذلك من موجبات الضجر ما لا يخفى، ولو أنهم

اقتصدوه درهمًا إلى درهم لَبَان لهم ضعفه وما شعروا بثقله، لكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضي شيئًا من التبصر، وذلك ما لا تقدر الجماعات عليه.

المثال الذي قدمناه من أسهل الأمثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة، وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون، لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه؛ لأن التجارب لما تعلمهم أن الناس لا يسيرون أبدًا على مقتضى قواعد العقل وحده.

ومن السهل الإكثار من الأمثلة التي ينطبق عليها علم روح الاجتماع، فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحًا تامًّا عددًا كبيرًا من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل إدراك حقيقتها بدونه، وسأبين في حينه أن السبب في كون أكبر مؤرخي الأعصر الحاضرة — وأعني به المسيو (تاين) — لم يفقه تمامًا بعض حوادث الثورة الفرنسية، إنما هو لأنه لم يشتغل بالبحث في روح الجماعات، بل استرشد في الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التي هي تصوير الحوادث ووضعها، غير أن القوى الأدبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون إلا شذوذًا مع أن تلك القوى هي التي تقوم عليها دعائم التاريخ.

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملي أو الرغبة في مجرد الوقوف على ما هو كائن، فمن المفيد استكناه أسباب الأفعال التي تصدر عن الإنسان، كما أنه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس.

سيكون كلامنا في روح الاجتماع موجزًا بمعنى أنه سيكون تلخيصًا لمباحثنا فلا يطلبن القارئ منه إلا بعض أفكار ترشد إلى غيرها، ولغيرنا أن يوغل في الموضوع، أما نحن فإنما نخططه على أرض لا تزال عذراء.[١]

هوامش

(١) قلت: إن القليل من العلماء الذين بحثوا في علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها، أما أنا فلا أخص لهذه الجهة إلا فصلًا صغيرًا من هذا الكتاب؛ لذلك أرجع القراء إلى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التي سماها (الجماعات الجارمة)، وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع، على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب إليه هذان العالمان على خط مستقيم. وسأنشر عما قريب كتابًا أتكلم فيه على روح الاشتراكية،

وهنالك تتبين أهمية الكثير من قواعد روح الجماعات، على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات أخر تخالف الموضوع الذي نحن بصدده. ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقي بمدينة بروكسل في رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسمًا جديرًا بمسماه وهو (فن الجماعات)، وبعث إليَّ بنسخة منها مع كتاب يقول فيه: إن كتابيك هما اللذان ساعداني على مسألة كنت أرى قبل الآن حلها مستحيلًا، وهي قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية، إذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية، سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة، وطنية أو أجنبية، بسيطة أو مركبة. وقد ذكر موسيو جيفيرت في رسالته أن القطعة الموسيقية قد لا يذوقها أشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة في كسر بيتهم، ويدركها لأول وهلة سامعون ليس لهم أدنى إلمام بقواعد الفن وأصوله.

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفساني

الجماعات بالمعنى المتعارف: اللفيف من القوم مطلقًا وإن اختلفوا جنسًا وحرفة، ذكورًا كانوا أو إناثًا، وعلى أي نحو اجتمعوا. أما في علم النفس، فلها معنى آخر، ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيرًا صفات الأفراد المؤلف هو منها، حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الأفراد نحو صوب واحد، فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة إلا أنها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح، وحينئذٍ يصير ذلك الجمع لفيفًا مخصوصًا لم أجد لتسميته كلمة أليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية، فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة، وبذلك يصير خاضعًا لناموس الوحدة الفكرية الذي تخضع الجماعات لحكمه.

وضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقًا لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة، وأن ألف نفس اجتمعوا عرضًا في رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس، بل لا بد في توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد.

ثم إن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار نحو غرض واحد، وهما الصفتان الأوليان للجماعة إبان انتظامها، لا تستلزمان دائمًا وجود أشخاص عديدين في مكان واحد، بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون، إذا تأثرت نفوسهم تأثرًا شديدًا بحادث جلل، كفاجعة عامة في الأمة، فإن اجتمعوا اتفاقًا وهم تحت ذلك التأثير لبست أعمالهم ثوب أعمال الجماعات لساعتها، وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فردًا، وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقًا، وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر إذا وقع عليها كلها أثر واحد.

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها، ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التي تتألف منها الجماعة، وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة، وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية إلى أنواع، وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم أنه يوجد للجماعات التي تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التي تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفاتٌ عامة جامعة، وأن لكل قسم مميزات خاصة به.

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغي أن نأتي على بيان الصفات العامة لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولًا الخواص التي تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التي تمتاز بها الأجناس والأنواع المندرجة في تلك الفصيلة.

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحًا دقيقًا؛ لأن نظامها يختلف أولًا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات، وثانيًا باختلاف طبيعة المؤثرات التي تقع على الجمعيات المذكورة. غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث في نفس الفرد الواحد؛ لأن الفرد لا يحيى حياة واحدة لا تتغير إلا في القصص والروايات، وغاية ما في الأمر أن وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق في الظاهر ليس إلا، وقد بينت في غير هذا المكان أن في جميع القوى المدركة استعدادًا لتوليد أخلاق جديدة تظهر إذا تغيرت البيئة تغييرًا فجائيًّا، هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية أفرادًا كانوا كالوحوش الضارية، وقد كانوا في زمن السلم قضاة من ذوي الفضل أو موثقين أولي سكينة هادئين، فلما سكنت العاصفة عادوا إلى سكينتهم، وكان لنابوليون منهم أعوان مخلصون.

ولما كان لا يتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا في التي كمل نظامها، فنعرف حينئذٍ ما قد يؤول إليه أمر الجماعات لا ما هي عليه دائمًا، خصوصًا إذا لوحظ أن الجماعة التي وصل نظامها إلى حد الكمال الممكن هي التي تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على ما في مجموعها من الصفات الثابتة التي لعامة الشعب، وهي التي تتحد فيها الإرادات، وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد، وهي التي يظهر فيها ذلك الناموس الذي سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات.

ومن الصفات النفسية ما تشترك فيه الجماعة مع الأفراد، ومنها ما هو خاص بها دون الفرد، وسنبدأ بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين ما لها من الأهمية.

أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده، وذلك كيفما كان أولئك الأفراد، وكيفما تباينوا أو اتفقوا في أحوال معيشتهم وفي أعمالهم اليومية، وفي أخلاقهم ومداركهم، وعلة ذلك مجرد انضمامهم إلى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة. ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل إلا عند الفرد في الجماعة، فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض إلى أجل، كخليات الجسم الحي التي ولدت باتصالها ذاتًا أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها، ورغمًا عما ذهب إليه هربرت سبنسر ذلك العالِم الحكيم المدقق مما ندهش له، نقول: إنه لا يوجد بين العناصر التي تتكون منها الجماعة حد وسط، وإنما الذي يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة، كما يحدث ذلك في الجواهر الكيماوية، ألا ترى أنك إذا جمعت جوهرين مثل القواعد والأحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تمامًا خواص كل واحد من الجوهرين.

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد في الجماعة وبين الفرد وحيدًا، غير أنه يصعب الوقوف على السبب في ذلك. ولكي يقر بنا البحث من معرفة هذه الأسباب على وجه ما ينبغي أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التي شاهدها علماء النفس في العصر الحاضر، وهي أن للحوادث اللاشعورية في حركة الإدراك الشأن الأول، كما أنها كذلك في الحياة الجسمانية، وأن حياة النفس الشاعرة ليست إلا شيئًا يسيرًا بجانب حياتها اللاشعورية، حتى إن أدق الباحثين تأملًا وأبعد المحققين نظرًا لا يسعه أن يقف إلا على قليل من البواعث اللاشعورية التي تدفعه إلى الحركة، بل إن حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعوري متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا، وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التي لا يحصيها العد، ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة التي نحن منها، فوراء أسباب أعمالنا التي نقصدها أسباب خفية لا إرادة لنا فيها، ووراء هذه أسباب كثيرة أخر أشد خفاء وأكثر غموضًا بدليل أننا لا نفقه شيئًا منها، وجل أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية تفوتنا معرفتها.

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التي تكوِّن روحه العامة، وهم إنما يفترون بالخواص الشعورية التي هي نتيجة التربية، وبالأخص نتيجة وراثة استثنائية، وأشد الناس افتراقًا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر،

وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها الشعور؛ كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور، وهكذا، إلا نادرًا، فقد يكون بين الرياضي الكبير وبين صانع حذائه بُعد ما بين السماء والأرض من حيث العقل والذكاء، ولكن الفرق بينهما في الطباع معدوم في الغالب أو هو ضعيف للغاية.

هذه الصفات العامة في الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة في جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريبًا هي التي لها المقام الأول في حركة الجماعات، فتختفي مقدرة الأفراد العقلية في روح الجماعة وتنزوي بذلك شخصيتهم، وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية.

ولكون الجماعات إنما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر في عدم قدرتها أبدًا على الإتيان بأعمال تقتضي فكرًا عاليًا وعقلًا رجيحًا، حتى إنك لا تجد فرقًا كبيرًا فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوي الكفاءات المختلفة وما يقرره جمعٌ كله من البلداء في موضوع المنفعة العامة؛ لأنهم لا يمكنهم أن يشتركوا في هذا العمل إلا بالصفات العادية التي هي لكل الناس، فالذي يغلب في الجماعات إنما هي البلاهة لا الفطنة، وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالبًا، بل الواقع أن فولتير أعقل من كل الناس إذا أردنا بكل الناس الجماعات.

لكن لو كان كل فرد في الجماعات لا يأتي لها إلا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حدًّا وسطًا فقط، وما تولَّدت خصال جديدة كما قدمنا، فمن أين إذن تأتي تلك الخصال. هذا الذي نبحث فيه الآن.

الأسباب التي تولد هذه الصفات الخاصة في الجماعات دون الأفراد كثيرة.

الأول أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال في أمياله ممَّا كان يحجم عنه منفردًا بالضرورة، ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد، فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة، وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغي.

السبب الثاني من الأسباب التي تولد في الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى، والعدوى من الظواهر التي يسهل بيانها، ولكنها ليست مما يتيسر تعليله، وهي من فصيلة الحوادث المغناطيسية التي سيأتي الكلام عليها، وكل شعور في الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو مُعدٍ إلى حد أن الفرد يضحي مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة، وهذه قابلية مخالفة جدًّا لطبيعة الإنسان، فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة إلا نادرًا.

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد في أفراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده، هو قابلية التأثر التي هي أصل في العدوى السابق الكلام عليها. ولسهولة إدراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دلَّ عليها علم وظائف الأعضاء، منها أنه أصبح من الواضح إمكان وضع الشخص بطرق شتى في حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تمامًا فينقاد إلى جميع ما يشير به عليه ذلك الذي أذهبها عنه، ويرتكب أشد الأفعال مباينة لخلقه وعادته، وقد دل النظر الدقيق في أحوال الجماعات أن الفرد متى أمضى زمنًا بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير في حالة خاصة تقرب كثيرًا من حالة الشخص النائم نومًا مغناطيسيًّا ين يدي المنوم، وذلك بتأثير السيالات التي تصل إليه من الجماعة، أو بأسباب أخر مما لم نقف عليه بعد، وحالة الشخص النائم هي تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخرًّا لحركات مجموعه العصبي اللاشعورية التي يسيرها المنوم كيف يشاء، هنالك تنطفئ الذات الشاعرة تمامًا، وتفقد الإرادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والأفكار نحو الغرض الذي رسمه المنوم.

تلك أيضًا على التقريب حال الفرد في الجماعة، فإنه فيها لا يبقى ذا شعور بأفعاله، وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الآخر اشتدادًا كبيرًا، كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم، فتراه عند الإشارة يندفع إلى الفعل المشار إليه اندفاعًا لا قِبل له بمقاومته، وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم؛ لأن التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم، والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولا طاقة لهم بمصادمة تيار الجميع، بل الذي يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع إلى غرض آخر كما وقع، أحيانًا من أن لفظًا سعيدًا أو خيالًا يمثل في الوقت المناسب أمام الجماعة يسدها عن ارتكاب أفظع الأعمال.

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد، والأهبة إلى الانتقال فورًا من الأفكار التي أشير بها إلى الفعل؛ هي الأخلاق الخاصة التي يتخلق بها الفرد في الجماعة، فهو لم يعد هو، بل صار آلة لا تحكمها إرادته.

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية، ولعله في نفسه كان رجلًا مثقف العقل مهذب الأخلاق، ولكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة، ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته، وفيه عنفه وقسوته، وفيه حماسته

وشجاعته، وفيه منه سهولة التأثر بالألفاظ والصور، مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة، ثم فيه الانقياد بذلك إلى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التي اشتهرت عنه، وبالجملة فإن الإنسان في الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ما هبت.

ذلك هو السر في أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كلٌّ من أفرادها إذا عُرضت عليه وحده، وفي أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الأعمال ما يرفضه كلُّ عضو من أعضائها بمفرده. كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فردًا متنورًا ذا طباع سليمة، فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير أفظع الأعمال حتى أسلموا للإعدام أظهرَ الناسِ براءةً من الآثام، ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس في ذواتهم، وحصدًا بذلك بعضهم بعضًا ليس هذا هو كل ما يفترق به الفرد في الجماعة عن نفسه منفردًا افتراقًا كليًّا، بل إنه قبل أن يفقد استقلاله الذاتي تتغير أفكاره ومشاعره تغيرًا كليًّا، فيصير البخيل مسرفًا، والمتردد سريع الاعتقاد، والتقي شريرًا، والجبان شجاعًا … هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازلَ عن امتيازاتهم، ومن المحقق أنه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضًا بتًّا.

نستنتج مما تقدم أن الجماعة دائمًا دون الفرد إدراكًا، ولكنها من جهة المشاعر والأعمال الناتجة عنها قد تكون خيرًا منه أو أردأ على حسب الأحوال، والأمر في ذلك راجع إلى الكيفية التي تستفز بها، وهذا هو الذي أهمله الكُتاب الذين قصروا بحثهم في الجماعات على جهة الشر منها، فإذا صح أن الجماعة شريرة في كثير من الأوقات، فمن الصحيح أيضًا أنها شجاعة في أوقات كثيرة أخر، تلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها إلى التقاتل في نصرة الدين أو تأييد المذهب، أو يستحثونها للعمل في سبيل المجد والفخار، فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما في حروب الصليبيين، أو للذود عن حومة الوطن كما وقع في سنة ١٧٩٣، نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته، ولكنها هي مادة التاريخ، فإنا لو اقتصرنا على تعداد الأعمال العظيمة التي فعلتها الأمم وهي هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك إلا يسيرًا.

الفصل الثاني

مشاعر الجماعات وأخلاقها

بعد أن أجملنا القول في أهم خواص الجماعات ينبغي أن نأتي عليها بالتفصيل.

كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل، وفقدان الإدراك وملكة النقد والتطرف في المشاعر وغير ذلك، يشاهد أيضًا في الأفراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل، ولكني لا أذكر هذه المشابهات إلا عرضًا؛ إذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج إليه لدى من عرف أحوال النفس عند الأقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الأولى، ثم هو لا يقنع من الإلمام له بتلك الأحوال إقناعًا تامًا.

ولنشرع في شرح كل صفة من الصفات التي توجد في أغلب الجماعات.

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

قدمنا عند الكلام في صفات الجماعة الأولية أنها منقادة عادة إلى العمل من دون أن تشعر بالدافع إليه، فتأثير المجموع العصبي في أفعالها أكبر جدًّا من تأثير المخ، وهي بذلك تشبه كثيرًا الرجل الفطري. وقد تكون الأفعال التي تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ، إلا أن العقل لم يكن رائدها فيها، بل إن الفرد في الجماعة يعمل طوعًا للمؤثرات التي تدفعه إلى الفعل، فالجماعة ألعوبة في يد المهيجات الخارجية، وهي تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذٍ هي مسخرة للمؤثرات التي تقع عليها، نعم قد يقع الرجل منفردًا تحت تلك المؤثرات عينها، لكن عقله يرشده إلى مضارها فلا ينقاد لحكمها، وذلك ما قد يعبر عنه علماء وظائف الأعضاء بأن في الرجل وحده قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة إذ ليس لها شيء من ذلك.

تتبع الدوافع المختلفة التي تبعث الجماعة إلى الفعل طبيعة المؤثرات التي ترجع إليها، فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الإقدام أو الخمول، لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها.

ولما كانت أنواع المؤثرات في الجماعة مختلفة جدًّا وكانت الجماعة تخضع لها دائمًا لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك، وهذا هو السبب في أنها تنتقل فجأة من أفظع الأعمال إلى أكبرها رحمة وكرمًا، فما أسهل ما تصير الجماعة جلادة، ولكن ما أيسر ما تكون ضحية أيضًا، وما سالت الدماء التي اقتضاها تأييد كل عقيدة في الوجود إلا من بطون الجماعات. ولسنا في حاجة إلى أن نذهب بعيدًا في التاريخ لنعلم ما تقدر عليه الجماعات في هذه السبيل فما ساومت على حياتها في ثورة. ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة في الناس، ولو أنه أراد لوجد مائة ألف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصارًا له.[١]

وعلى ذلك لا يوجد من أفعال الجماعة ما هو صادر عن قصد ورويَّة، فهي تنتقل من شعور إلى شعور، وهي على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلُها في ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط. وسنأتي بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية.

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعبًا على من يزاوله خصوصًا إذا وقع في يدها فسقط من السلطة العامة، ولولا أن مقتضيات الحياة اليومية تفعل في الأمور كمنظم خفي لتعسر جدًّا البقاء على الديمقراطية (الحكومات النيابية)، إلا أنه بقدر ما تتطرف الجماعة في إدارة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الإرادة، فإنها لا قدرة لها على الإرادة المستمرة، كما أنها لا تقدر على إطالة النظر والتفكير.

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ما تمتاز به الجماعة، بل هي مع ذلك كالهمجي لا تطيق وجوده حائلًا بينها وما تريد، والذي يساعدها على أن لا تعقل الحيلولة أن الكثرة تُحدث فيها شعورًا بقوة لا حد لها، فتصور المستحيل بعيد عن الفرد في الجماعة. يشعر الرجل منفردًا بعجزه عن إحراق قصر أو سلب حانوت، فإن دفعه دافع قاوم وامتنع، فإذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد، وكفى أن يشار إليه بقتل أو سلب لينساب انسيابًا لا يثنيه عنه شيء، فإن كان في طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة، ولو احتمل تركيب الإنسان دوام الغضب لقلنا إن الحالة الطبيعية للجماعة التي خولفت في مقصدها هي الغضب الدائم.

وليلاحظ أن خصال الشعب الأساسية منضمة دائمًا إلى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التي سنأتي عليها، فالأولى هي الأساس الذي ترتكز عليه الثانية. ولبيان ذلك نقول: إن كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت في ذلك كثيرًا، فالفرق جلي بين جماعة لاتينية وجماعة إنكليزية سكسونية. وأقرب الحوادث في تاريخنا يوضح ذلك بأجلى بيان، فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برقي عن إهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها، وتولد من ذلك لساعته حرب ما كان أشد هولها. وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا في (لانجسون)، فقامت القيامة وسقطت الحكومة في الحال، وفي ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الإنكليزية أمام الخرطوم انكسارًا أكبر من هذا بكثير، فلم ينزعج له الرأي العام الإنكليزي إلا قليلًا، ولم تتزحزح من أجل ذلك وزارة عن مركزها، كل الجماعات في كل الأمم كالنساء وأشدها شبهًا بهن الجماعات اللاتينية، فمن اعتمد عليها جاز أن يرقى إلى الذرى في وقت قصير، لكنه يكون على الدوام مماسًا لصخرة زبيان[٢] وموقنًا أنه سيتدهور يومًا من الأيام.

(٢) قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا في تعريف الجماعات إن من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر، وبينا كيف أن التأثر معد في كل مجمتع إنساني، وفي ذلك إيضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود.

وكيفما ظهرت على الجماعات شارات الهدوء والسكون، فإنها على الدوام في حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلًا، فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه إلى رءوس الكل، وفي الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود، وسواء كان ذلك الغرض إحراق قصر أو إتيان عمل كريم، فإنها تندفع نحوه بسهولة واحدة، والأمر إنما يتوقف على طبيعة المحرك لا على ما يرجحه العقل من وجوب إمضاء الفعل أو الإحجام عنه كما في الأفراد. ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة في حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات إحساس قوي كإحساس الأشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز، كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد، فهي لا تعرف الغير المعقول، فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر في سرعة انتشار الأقاصيص التي تخرج عن حد المعقول.[٣]

ثم إن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد في اختراع الأقاصيص التي تنشر بسرعة بين الناس، بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذي يعتور الحوادث في مخيلة المجتمعين؛ إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات، وكل تخيل يجر إلى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة، وإنا لندرك هذه الحال إذا ذكرنا ما قد يتوارد علينا من الأفكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع، والفرق بيننا وبين الجماعة أن العقل يرشدنا إلى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين، وأنه ليس في قدرتها أن تصل إلى مثل هذا التمييز وأن كل ما أحدثه خيالها من التشويش تضيفه إلى أصل الحادثة، فهي لا تفرق بين الشيء وما يرمي إليه، بل هي تقبل جميع الخيالات التي تعرض لها، ولا نسبة في الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولًا.

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التي تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الأفراد الذين تتكون هي منهم مختلفة متباينة بالضرورة، لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى؛ لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التي تنتشر منها العدوى إلى البقية، فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولًا[٤] فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسمًا مرئيًّا.

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التي رواها التاريخ، وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس.

ولا ينبغي في رد ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر؛ لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا، إذ العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا في الجماعة. ورب معترض يقول: إن تلك سفسطة، لأن الواقع غير ذلك، إلا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا العمل عدة مجلدات، غير أني لا أريد أن أترك القارئ أمام قضايا لا دليل عليها، ولذلك سآتي ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التي يمكن سردها.

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة في موضوعنا لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت إلى صفوفها من الأفراد صنوفًا وأنواعًا ما بين جاهل غبي وعالِم ألمعي، رواها عرضًا ربان السفينة جوليان فيليكس في كتابه الذي ألفه في مجاري مياه البحر، وسبق نشرها في (المجلة العلمية) قال:

كانت المدرعة (لابيل پول) تبحث في البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة، وكان النهار والشمس صافية، وبينما هي سائرة إذا بالرائد يشير إلى زورق يساوره الغرق، فشَخَص رجال السفينة إلى الجهة التي أشير إليها ورأوا جميعًا من عساكر وضباط جليًّا زورقًا مشحونًا بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام البأس والشدة ... كل ذلك كان خيالًا، فقد أنفذ الربان زورقًا صار ينهب البحر إنجادًا للبائسين، فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداسًا من الناس يموجون ويمدون أيديهم، وسمعوا ضجيجًا مبهمًا يخرج من أفواه عدة حتى إذا وصلوا المرئى وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطئ القريب، وإذ تجلت الحقيقة غاب الخيال.

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذي يتولد في الجماعة بحال لا تحمل الشك ولا الإبهام كما قررناه من قبل، فهنا جماعة في حالة الانتظار والاستعداد، وهناك رائد يشير إلى وجود مركب حفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من في الباخرة عساكر وضباطًا.

ليس من الضروري أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة إبصار الأشياء على حقيقتها، وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها، بل متى اجتمع بعض أفراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وإن كانوا من أكابر العلماء، وليست هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمي، وفي الحال تنزوي ملكة التمييز وتنطفئ روح النقد في كل واحد منهم، ومن الأمثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافي) وهو أحد علماء النفس المحققين، وقد نشرته حديثًا مجلة (أعصر العلوم النفسية)، ويحسن بنا إيراده. دعا إليه موسيو (دافي) عددًا من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء إنكلتره هو المستر (ولاس)، وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختومًا كما شاءوا، ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح والكتابة على (الإردواز) وهكذا، وكتبوا له شهادات قالوا فيها إن المشاهدات التي وقعت أمامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر، فلما صارت الشهادات في يده أعرب لهم أن ما كان إنما هو شعوذة ما أبسطها. قال راوي الحادثة: والذي يوجب الدهش والاستغراب في بحث مسيو (دافي) ليس إبداعه ومهارته في الحركات التي قام بها، بل ضعف الشهادات التي كتبها أولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها، وأن

الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطأ، وأنه لو صح وصفهم الحوادث التي يرونها لتعذر تفسيرها بالشعوذة، على أن الطريقة التي استنبطها موسيو (دافي) بسيطة يندهش الإنسان لبساطتها من جراءته على استعمالها، ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعلها ترى ما لم تكن ترى.

ذلك هو تأثير المنوم في المنوم دائمًا، وإذا تبين أن هذا التأثير جائز في عقول سامية بعد أن أنذرت، فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية.

والأمثلة التي من هذا القبيل لا تحصى. أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (السين).

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصًا معرفة أكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقًا لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق، فرخص بدفنهما، وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما أولئك الشهود بالإجماع، وبان أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين إلا شبه بعيد جدًّا. والذي وقع هنا هو بذاته ما وقع في الأمثلة التي سردناها، تخيل الشاهد الأول أن الغريقتين هما فلانة وفلانة، فقال ذلك وأكده، فسرت عدوى التأثير إلى البقية.

وأول مراتب التأثير في هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام ما يتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة في ذاكرته، ثم يتدرج من ذلك إلى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثر بذلك الخيال الأول. فإذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفي أن يكون في الجثة التي تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذي قد يكون في الجسم الذي سبقت له معرفته ليتخيل أنها هي ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقي في الخلقة، إذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الإدراك وتعطل ملكة التمييز تمامًا. وحينئذٍ لا يرى الإنسان الشيء الذي أمامه نفسه بل الصورة التي خيلت إليه. ومن هنا نفهم السر في خطأ الأمهات اللاتي يُخيل إليهن أنهن يعرفن جثث أولادهن كما وقع في الحادثة الآتية، وهي وإن تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها أخيرًا، ومنها يدرك القارئ درجة التأثر الذي بينا كيفيته. عرف غلام جثة غلام وكان مخطئًا، وترتب على ذلك أن أشخاصًا كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الأول، وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان؛ إذ جاءت امرأة في اليوم الثاني وهي تصيح: ربي إنه ولدي، فلما دخلت عليه أخذت تقلب ثيابه فرأت جرحًا في الجبهة، فقالت: نعم، هذا ولدي فقدته منذ شهر يوليو الماضي، ولقد

سرقوه مني ثم قتلوه. وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت)، ثم جيء بزوج أختها، فما وقع نظره على الجثة إلا وقال هذا فيليبير. كذلك عرفه كثير من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة؛ إذ رأى في عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على أنه هو ابن تلك السيدة. أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين، وبان بعد ستة أسابيع أن الجثة جثة ولد من أهل مدينة (بوردو) قُتل هناك وحملته شركة النقل إلى باريس.[٥]

والذي تجب ملاحظته هو أن هذه المعرفة تقع غالبًا من النساء أو الصبيان، أعني من الأشخاص شديدي التأثر أكثر من غيرهم، وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء. فالواجب أن لا يلتفت إلى قول الصبي بحال من الأحوال. يقول القضاة مجمعين إن الإنسان في هذا السن لا يكذب. ولو أنهم ارتقوا في معرفة أحوال النفس درجة لعلموا أنه فيه يكذب على الدوام. نعم إنهم غير آثمين فيما يكذبون، ولكنهم على كل حال يكذبون وإلا لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهي الدينار (طره ولّا ياز) من أن تبنى على شهادة صبي.

ولنرجع إلى مشاهدات الجماعة فنقول: إنها أكثر المشاهدات خطأً وإنها في الغالب عبارة عن خيال، فردٌ واحد سَرَتْ عدواه إلى الجميع. وقد لا نفرغ من سرد الأمثلة التي توجب علينا الحذر والحيطة في الأخذ بشهادة الجماعة، فقد حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان في واقعة (واترلو)، ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقي لهذه الحملة نظرًا لتناقض أقوال من شهدوها. وأثبت الجنرال (ولسلي) الإنكليزي في كتاب نشره أخيرًا أن الرواة أخطأوا خطأً فاحشًا حتى الآن في سردهم الوقائع في حرب (سدام)، وهي التي أجمع المئات من الناس على صحتها.[٦]

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات. نعم إن كتب المنطق تعد إجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الأدلة التي يمكن إقامتها لإثبات أمر من الأمور، ولكن الذي نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا إلى أنه يجب أن تؤلَّف كتب المنطق في هذا الموضوع من جديد، فالشك كل الشك في الوقائع التي رواها الجم الغفير، والقول بأن الأمر شوهد في الزمن الواحد من ألوف من الشهود هو في الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيرًا ما اتفق أولئك الشهود عليه.

نتج من هذا أنه ينبغي النظر إلى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس وأُردفت بشروح

متأخرة عنها، وعليه فإن عمل أي عمل كيفما كان رديئًا أولى من قتل الوقت في وضع مثل تلك التآليف.

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للأقاصيص وإن سجلت في بطون كتب التاريخ؛ لأن خيال الجماعات لا ينفك بغيرها وبحرفها مدى الزمن، بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذي جاء ذكره في الإنجيل ويهوذا إله الحب الذي ذكره القديس (تيريز)، وبدليل أن (بوذا) الذي تعبده الصين لم يبق بينه وبين (بوذا) المعبود في اليابان وجه شبه ما.

بل إنه لا يلزم أن تتعاقب الأجيال لتتغير صور عظماء الرجال في خيال الجماعات، فإن هذا الانقلاب قد يحصل في بضع سنين أنًّا شاهدنا قصة أعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات في أقل من خمسين عامًا. ففي عهد آل (بوربون) كان نابليون رجلًا يحب الإنسانية، حر الأفكار صديقًا للضعفاء، ولو صدق الشعراء لبقي ذكره في أكواخهم (الفقراء) زمنًا مديدًا. وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبدًّا سفاكًا استلب الحكم والحرية، وأهلك ثلاثة آلاف ألف من النفوس في سبيل أطماعه. واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابليون، فإذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذاك الزمان أمام هذه الروايات المتناقضة في وجود هذا البطل، كما يشك بعضهم الآن في وجود بوذا، وقد لا يرون فيه إلا خرافة أو صورة مكَّبرة من صورة (هرقل) اليوناني، غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يُسري الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة، إذ يعلمون التاريخ إنما يقلد الخرافة والأقاصيص.

(٣) غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة، أي سواء كانت طيبة أو رديئة، فإن لها صفتين: بساطة للغاية، وغلوًّا للنهاية. ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعًا والرجل الفطري، كما يحصل ذلك أيضًا في أحوال أخرى. فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق، ويرى الأشياء في جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور إلى آخر. ومما يزيد في غلو مشاعر الجماعة أن كل إحساس يبدو، فسرعان ما ينتشر بعامل التأثر والعدوى، وإجماع الكل على قبوله يزيد في قوته زيادة كبيرة.

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد، فهي كالنساء تذهب فورًا إلى الحد الأقصى. فالشبهة متى بدت تتقلب إلى بديهي لا يقبل البحث، والرجل

منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفورًا لا يتعدى مجرد الرغبة عنه، وأما الرجل في الجماعة فإنه متى نفر انقلب نفوره حقدًا شديدًا.

وتزداد شدة المشاعر غلوًّا على الأخص في الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الأعمال من بينهم، فيتولد عندها من المشاعر وتأتي من الأعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد لتحقق كل من عدم وقوعه في العقاب. وكلما كان العدد كبيرًا قوي فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة، هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة.

ومن نكد الطالع أن غلو مشاعر الجماعات يظهر غالبًا في الشر، وتلك بقية مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين، وهي مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسئول عن عمله مسوقًا بعامل الخوف من العقاب. وهذا هو السبب في سهولة قيادة الجماعة إلى أقبح درجات التطرف.

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام بأكرم الأعمال والإخلاص وأرفع الفضائل إذا حسن التأثير فيها، بل هي أشد قبولًا لذلك من الرجل المنفرد. وسنعود إلى هذا الموضوع عند الكلام في أخلاق الجماعات.

وكما أن الجماعة تغالي في مشاعرها فلا يؤثر فيها إلا المشاعر المغالى فيها، فالخطيب الذي يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الإكثار من التوكيدات الحادة؛ لأن المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض أبدًا إلى إقامة البرهان على أي قضية، كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها.

تطلب الجماعة من أبطالها الغلو أيضًا في مشاعرهم، فمما ينبغي لهم من أجلها أن يُفخِّموا في ألقابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية. وقد شوهد أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات في مراسح الملاهي شجاعة وأخلاقًا وفضائل ليست لأحد في الوجود الحقيقي.

والكثير ينسب هذا الميل لأحوال الملاهي الخاصة التي تُولد في نفوس المتفرجين هذا الشعور. نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد، غير أنها قواعد لا تنطبق غالبًا على ما يقتضيه الذوق السليم والأحوال المنطقية. والواقع أن فن الخطابة في الجماهير ذو درجة منحطة، إلا أنه يقتضي صفات مخصوصة. وكثيرًا ما يحار الإنسان عند تلاوة رواية في معرفة السبب في نجاحها، حتى إن مديري الملاهي أنفسهم عندما تُقدَّم إليهم تلك الروايات يشكُّون في نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها إلا إذا

لبسوا ثوب جماعة متفرجين.[٧] ولو أنه أتيح لنا التوسع في هذا البحث لبينًّا رجحان تأثير الأخلاق القومية في هذا المقام؛ لأن الرواية التي تخلب العقول في بلد قد لا يلتفت إليها في بلاد غيرها إلا بقدر ما تقضي به المجاملة والاصطلاح؛ لأنها لا تحرك في غير بلدها شجون سامعيها وهو شرط نجاحها.

لست في حاجة إلى القول بأن مغالاة الجماعات تكون على الدوام في مشاعرها، ولا تتعدى إلى قوتها العاقلة أبدًا. فقد سبق لي بيان أن مدارك الرجل في الجماعة تنحط سريعًا انحطاطًا عظيمًا، ذلك هو ما شاهده أيضًا أحد أفاضل القضاة مسيو (شارد) في مباحثه عن جرائم الجماعات، وعليه فالجماعة إنما ترتقي أو تنحط في دائرة المشاعر.

(٤) عدم مسالمة الجماعات وميلها إلى التسلط والإمرة والمحافظة على القديم

قلنا إن الجماعات لا تعرف من المشاعر إلا ما كان متطرفًا بسيطًا، وهي لذلك تقبل ما يلقى إليها من الآراء والأفكار والمعتقدات بجملتها أو ترفضها كذلك، فتأخذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على أن هذا هو الشأن في المعتقدات التي تتحصل من طريق التلقي لا التي تتصل بالإنسان من طريق النظر والتعقل. وكلٌّ يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير في عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس.

ولما كان باب الشك غير مفتوح أمام الجماعة في كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل، وكانت تشعر شعورًا تامًّا بقوتها كانت إمرتها مساوية لعدم احتمالها. يطيق الفرد المناظرة والخلف، أما الجماعة فلا تطيق ذلك أبدًا، وأقل خلف يأتي به الخطيب الذي يتكلم في المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد، فإن أصر فنصيبه الإهانة والطرد بلا إمهال، ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحيانًا.

عدم الاحتمال والإمرة شائعان في الجماعات كلها، غير أنهما يختلفان في كل واحدة منها، وهنا أيضًا يظهر لنا أثر الأخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم. فأقصى درجات عدم الاحتمال والإمرة توجد في الجماعات اللاتينية، إذ بلغت عندها إلى حد أنها أماتت في الفرد روح الاستقلال التي هي أشد أخلاق الإنكليزي السكسوني، فلا تهتم الجماعات اللاتينية إلا باستقلال المجموع الذي هي منه، وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل إلى التعجيل بإخضاع المخالف في الرأي

لمعتقد الجماعة عنوة وقسرًا، ذلك هو نوع الحرية الذي عرفه المتطرفون في كل عصر، ولم يكن في قدرتهم أن يعرفوا سواه.

الإمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التي تجيد الجماعات معرفتها، فهي تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب، وهي تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلًا؛ لأنها في نظرها صورة من صور الضعف ليس إلا، لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين، بل إلى الطغاة المستبدين سحقوها. لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل في كل عصر وأوان، وإذا تخطت بالأقدام فوق غشوم سقط من عليائه، فذلك لأنه فقد سلطانه واندرج في عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون. فأعز الأبطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيهًا بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم سلطانه ويخيفهم صولجانه.

الجماعة في استعداد دائم للانتفاض على السلطان إذا ضعف، وهي تحني الرأس أمام الوازع المنيع، فإن تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاهرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع إلى الفوضى، وثابَت من الثورة إلى الخنوع.

ولقد يخطئ في إدراك حقيقة الاجتماع من يظن أن الروح السائدة على الجماعات دائمًا هي الثورة، والذي يوجب الشبهة في ذلك إنما هو تعسفها وقسوتها. والحقيقة أن انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعًا، لأن خضوعها لفواعل الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية، فهي ميالة كل الميل إلى المحافظة على الحال التي هي، ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها إلى الاستكانة والاستعباد، هكذا كان أشد القوم تهليلًا وترحيبًا بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرسًا وتطرفًا لما ألجم جميع الحريات وأثقل بيديه التي من حديد.

ومن الصعب أن نفهم التاريخ لا سيما تاريخ ثورة الأمم إذا لم نكن على علم تام بتأصل علم الجماعات إلى المحافظة. تبغي الجماعات استبدال أسماء نظاماتها، وقد تثور الثورة العنيفة للوصول إلى ذلك التغيير، لكن لب هذه النظامات من حاجات الأمة التي تلقتها عن الآباء والأجداد، فهي ترجع إليه على الدوام. وأما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق إلا بالمسائل العرضية، والحاصل أن عاطفة المحافظة في الجماعات قوية كما هي عند أهل النشأة الأولى. يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة، وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية، ولو أن سلطة الديمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال

تحقيق هذه المخترعات، أو لكان ثمنها كثيرًا من الثورات وقتل الألوف من النفوس. فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور إلا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية.

(٥) أخلاق الجماعات

إذا أردنا من كلمة الأخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات، فليست الجماعة أهلًا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها، لكن إذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلُّق مؤقتًا ببعض الصفات كإهمال الذات والإخلاص والتنزُّه عن الغاية وتضحية النفس والميل إلى الإنصاف، جاز لنا أن نقول بأن الجماعات أهل للتجمل بأخلاق عالية.

أما السبب الذي حدَا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا في أحوال الجماعات إلى الحكم عليها بانحطاط الأخلاق، فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا أن أعمالها من هذه الجهة كثيرة.

نعم هذا هو الغالب في الجماعات، وعلته أن العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت في قلب كل واحد منا، والفرد لا يجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذي تجره عليه. أما الجماعة فغير مسئولة عن أعمالها، فإذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه. لا ترى أنه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به إلى الحيوان فواصله بالأذى. فشهوة الإيذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به، فهي تفترس الرجل إذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان، وهم يجتمعون زمرًا زمرًا ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف، والكل في نظر الحكيم وحش مفترس.

بقي أن الجماعة كما أنها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم، هي أهل للإخلاص في العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد، بل هي أقرب منه إلى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين والوطن إلى حد المخاطرة بالأرواح. وأمثلة الصليبيين ومتطوعي سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد في التاريخ، فالجماعة دون الفرد أهل لعظائم الأعمال في باب النزاهة والإخلاص، وكم من جماعة تقدمت إلى الموت في سبيل معتقدات وأفكار وكلمات كانت تكاد لا تفقه شيئًا من معانيها، حتى إن الجماعة التي تقوم بالاعتصاب إنما تعتصب لصدور الإشارة بذلك

إليها أكثر من ميلها لنيل الزيادة في الأجر الزهيد الذي اقتنعت به من قبل؛ لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سببًا قويًّا لحركات الجموع، وهي على التقريب السبب الوحيد في عمل الفرد، فليست هي التي ساقت الجم الغفير من الجموع إلى الحروب من دون أن يدرك السبب فيها ولا الغرض منها، ولا هي التي جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدي الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو إليه.

حتى الأوغاد كثيرًا ما يكون انضمامهم إلى الجماعة علة في ارتقاء الملكات الفاضلة في نفوسهم وقتًا ما كما لاحظه (تاين) في قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الأموال ونفيس المتاع ويقدمونه لِلَّجنة مع أنه كان من السهل عليهم إخفاؤه، كذلك الجماعة التي وجهت على قصر (التويلري) في ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئًا من تلك النفائس التي بهرتها، وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الأثر. نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة، ولكنه كثير الوقوع حتى في أحوال أقل شدة من التي تقدم ذكرها، وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الأخلاق وأرفع الفضائل، ومن السذاجة أن نقول بأن الجماعة وإن تكونت من أفراد منحطي الأخلاق تظهر غالبًا بمظهر الكمال، هكذا المنغمس في الموبقات والديون والوغد يزمجرون غالبًا إذا رأوا منظرًا منافيًا للآداب، أو سمعوا هذرًا يعد تافهًا بجانب حديثهم الذي تعودوه في ندواتهم.

ثبت مما تقدم أن الجماعة كما أنها تميل إلى الدنايا هي أهل للتحلي بأخلاق عالية، وإذا صح أن يكون التنزه في العمل والجلد والإخلاص المطلق لمبدأ وهمي أو صحيح من الفضائل الأدبية جاز القول بأن للجماعة في الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء إلا قليلًا حقًّا، هي تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ما ضرنا من هذا، ونحن لا ينبغي لنا أن نشكو كثيرًا من الأفعال التي تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها إلا النادر؛ لأنها لو تعقلت أحيانًا ورجعت إلى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من أركان الحضارة، ولا كان للإنسانية تاريخ يتلى.

هوامش

(١) يشير المؤلف إلى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية في العقد التاسع من القرن الماضي، حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولًا، التفَّت حوله القلوب التفافًا، دعاه إلى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به، ولولا أنه عاجلته المنية لجدد زمان نابوليون وأتى الفرنساويون تحت إمرته ما لم يكن في الحسبان.

(٢) هي صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها.

(٣) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل، من ذلك أنهم كانوا يرون في مصباح أوقد في نافذة أحد المنازل إشارة معطاة للعدو، مع أن أقل التفات كان يكفي للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضوء ذلك المصباح، وهو بعيد عنه بعدة أميال.

(٤) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لإجماع الصليبيين عليها.

(٥) اقرأ جريدة (اكلير)، ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥.

(٦) إني أشك كثيرًا في أننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة، والذي نعرفه إنما هو الغالب والمغلوب، وأظن أنَّا لا نعرف غير ذلك، والذي رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جمع الحرب، قال: يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر، فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الأوامر، ويُعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية، فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته، ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح: بل أنتم مخطئون، ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الأصل إلا يسير. وإنما حكى موسيو (داركور) هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول إلى معرفة حقيقة أشهر الحوادث حتى التي ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلًا.

(٧) وبما تقدم ندرك السبب في أن الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهي كلهم، ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحًا دونه كل نجاح. ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور، بعد أن رفضها مديرو الملاهي الشهيرة كلها مدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الأدبية الكبرى. كذلك رواية لامارين دي شارلي، أبت الملاهي كلها تشخيصها فأنفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها، فمثلت مائتي مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في بلاد الإنجليز، ولولا ما قدمناه من استحالة

نظر مديري الملاهي في الروايات نظر جماعة المتفرجين ما فهمَ كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الأحكام، أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم، وهم من كبار الأدباء بين أهل الفن، ولهم في تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه. هذا موضوع لا يسعني الإسهاب فيه، وهو جدير بأن يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهي والبراعة في علم النفس مثل موسيو سرسي.

الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) أفكار الجماعات

بحثنا في كتابنا السابق عن تأثير الأفكار في تطور الأمم، وبينا أن كل مدنية تقوم على أفكار أساسية محدودة قلما تتجدد، وشرحنا كيف تتمكن تلك الأفكار من نفوس الجماعات، وكيف أنها لا تدخل عليها إلا بالصعوبة، وما هي القوة التي تكون لها متى احتلتها، ثم أوضحنا كيف أن التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالبًا مما يطرأ على هذه الأفكار الأساسية من التغيير، وذلك كله بالإسهاب والشرح الوافي، وعليه لا نعود إلى بسط الكلام في هذا الموضوع مرة أخرى، وإنما نوجز القول في الأفكار التي هي من مقدور الجماعات والصورة التي تتناولها عليها.

تنقسم هذه الأفكار إلى قسمين: الأول الأفكار العرضية الوقتية التي تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الأفراد أو مذهب من المذاهب، والثاني الأفكار الأساسية التي تكتسب من البيئة والوراثة والرأي ثباتًا. مثال ذلك العقائد الدينية في الماضي والأفكار الدمقراطية والاجتماعية في الزمن الحالي.

فالأفكار الأساسية أشبه بالماء الذي يجري الهوينا في النهر، والأفكار العرضية تشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التي تضرب وجه ذلك الماء، وهي مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه.

وقد أخذت الآن الأفكار الأساسية التي عاش بها آباؤنا في الاضمحلال شيئًا فشيئًا، ففقدت ما كان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك النظامات التي كانت تقوم عليها، وفي كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا، إلا أن القليل منها هو الذي ينمو وهو الذي يكون له في المستقبل تأثير كبير.

وكيفما كانت الأفكار التي تلقى في نفوس الجماعات، فإنها لا تسود ولا تتمكن إلا إذا وضعت في شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها في هيئة صورة تحسنها، وهو الشرط اللازم لأن نحل من نفوسها محلًّا كبيرًا. وليس بين هذه الأفكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم، فيجوز أن يحل بعضها محل بعض، كالزجاجات السحرية التي يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها، ذلك هو السبب في قيام الأفكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات. وعلى حسب الأحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الأفكار التي اجتمعت في مدركتها، فتأتي بأشد الأعمال تناقضًا وتضاربًا.

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها، بل هي تشاهد أيضًا في الأفراد لا فرق في ذلك بين من لا يزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحي العقل، كالذين غلت ثورة الدين في رؤوسهم، بل إني شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيري الهندستان الذين تربوا في مدارسنا الأوروبية ونالوا جميع شهاداتها، فرأيت أنه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو أفكارهم الاجتماعية الوراثية. مجموع أفكار غريبة لا علاقة بينها وبين الأولى وذلك من دون أن تؤثر فيها، وكانت هذه أو تلك تظهر في الخارج طبقًا لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال وأقوال، فيبدو الفرد منهم مناقضًا لنفسه كل التناقض على أنه تناقض في الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقي؛ لأن الأفكار الموروثة هي المعول عليه، إنما هو الأثر الذي ينتج عنه، ألا ترى أن الأفكار الدينية في القرون الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن الماضي والاجتماعية في زماننا هذا، ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر، فإن الفلسفة لا تعتبرها إلا أغاليط صغيرة، ومع ذلك فإنه لا حد لأثرها فيما مضى، وستكون ولا حد له فيما يأتي ستبقى هي العوامل الأساسية في حياة الدول والممالك زمنًا طويلًا.

ثم إن الفكر وإن تغير حتى صار تناوله في مقدور الجماعات لا يظهر أثره إلا إذا دخل في عداد الغرائز وامتزج بالنفس، فصار من المشاعر، وهو ما يقتضي زمنًا طويلًا، ولذلك وسائل سنأتي على بيانها في موضع آخر.

فلا يتوهمن القارئ أن أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوي العقول النيرة. يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر في السواد الأعظم من الناس بعد ظهورها جليًّا. نعم إذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين إن كانوا من المستنيرين، غير أنهم لقرب عهدهم بالإيمان لا يلبثون أن ترجعهم فطرتهم إلى معتقدهم القديم، فإذا لاقيتهم بعد قليل من الأيام رأيتهم يسوقون إليك حجتهم الأولى في ثيابها الأولى

بلا تغيير؛ لأنهم خاضعون لسلطان أفكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية، وهي وحدها الفعالة في موجبات أعمالنا وأقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة.

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة، وأنتج آثارًا متعددة لا بد من الرضوخ لحكمها. قطعت الأفكار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنساوية في سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مئة عام، وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد أن تمكنت منها. هبت أمة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية وإقامة صرح الحريات التي تنتهي إليها الآمال، فزعزعت التيجان وجعلت عالي الغرب سافله إذ تساجلت الأمم بالحروب عشرين عامًا وشهدت القارة الأوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان، مشهد لم ير البشر قبله إلى أي حد يصل هول الفكر إذا انبثق.

وكما أن وصول الأفكار إلى نفوس الجماعات يقتضي زمنًا طويلًا كذلك خروجها منها، لهذا كانت الجماعات دائمًا متأخرة في أفكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء، وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما في الأفكار السياسية المتقدم ذكرها من الخطأ، ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمكنًا، لذلك هم مضطرون في قيادة الأمم إلى مراعاة مقتضياتها، ولما يعتقدوا بشيء من صحتها.

(٢) تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقًا بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول، غير أن طبقة الأدلة التي تقيمها هي تأييدًا لأمر من الأمور أو التي تؤثر عليها منحطة جدًّا من الجهة المنطقية، فلا يصدق عليها اسم الدليل إلا من باب التشبيه.

وتلك الأدلة المنحطة مبينة على قاعدة الأساس كالأدلة الراقية، إلا أن رابطة الأفكار التي تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقة، فهي تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة في ذهن الرجل الإسكيماوي الذي عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب في الفم، فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضًا يجب أن يذوب في الفم، وكالمتوحش الذي يتصور أن أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته إلى الآكل أو كالأجير الذي هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق.

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها إلا في الظاهر والانتقال الفجائي من الجزئي إلى الكلي، ومن التخصيص إلى التعميم بلا تروٍ، والأدلة التي يقدمها إليها أولئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز؛ لأنها هي الأدلة التي تؤثر فيها، بخلاف سلسلة من الأدلة المنطقية فإنها لا تدركها بحال، لذلك صح القول بأنها لا تتعقل أو هي تتعقل خطأ، وأنها لا تتأثر بالمعقول. وكثيرًا ما يعجب الإنسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذي أحدثته في سامعيها على ما بها من الضعف والركاكة، وكأني بالمتعجب وقد نسي أن تلك الخطب إنما صيغت لتؤثر في الجموع لا ليقرأها العلماء، فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التي تجذبها، فإذا نجح فذلك ما أراد، ولو ألقيت خطب في عشرين مجلد بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما أحدثته تلك الكليمات التي دخلت في الرؤوس المراد إقناعها.

وغني عن البيان أن عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد، أي يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب، وأن تحكم حكمًا صحيحًا في أمر ما. أما الأفكار التي تقبلها هي، فهي التي تلقى إليها لا التي يناقش فيها. والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات في هذا الباب كثيرون، وسهولة انتشار بعض الأفكار وصيرورتها عامة آتية على الأخص من عدم قدرة السواد الأعظم على اكتساب الرأي من طريق النظر الذاتي.

(٣) تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التي لا تتعقل في حدة التخيل وفعله الدائم، وفي قابليتها للتأثر الشديد، فالصورة التي تحضرها من إنسان أو واقعة أو رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها، وحال الجماعات أشبه بالمنوم الذي تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر في ذهنه صور مؤثرة جدًّا، لكنها تزول بمجرد التأمل فيها. ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف أن شيئًا ما غير معقول، وغير المعقول هو الأشد فعلًا في النفس غالبًا.

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة أكبر مؤثر فيها، وإذا دققنا النظر في حضارة ما وجدناها إنما تقوم على الغريب والقصص، كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن أكبر من الواقع والوهمي سائد على الحقيقي.

لا تتعقل الجماعات إلا بالتخيل ولا تتأثر إلا به، فالصور هي التي تفزعها وهي التي تجذبها وتكون سببًا لأفعالها.

لذلك كان التشخيص في الملاهي من أكبر المؤثرات في الجماعات دائمًا؛ لأنه يمثل لها الأشياء في أجلى صورها، فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة في العيش والملهى ولا تبتغي بعد ذلك شيئًا، وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال إلا قليلًا. ولا يزال التمثيل أكبر مؤثر في الجماعات من كل الطبقات، فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وإن كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور إلى العقل، فذلك لأن الفرد منهم وإن بلغ منه عدم الالتفات للواقع ما بلغ لا ينسى أنه في عالم الخيال، وأنه إنما ضحك أو بكى متأثرًا بحوادث تصورية، على أنه قد يقع أن الصورة تفعل في النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها إلى العمل؛ إذ كثيرًا ما سمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة، فكان الحرس يحيط دائمًا بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفًا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لأنه ارتكب تلك الجرائم الوهمية. وهذا فيما أرى من أكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالأخص على سهولة التأثير فيها، فللوهمي عليها من ذلك ما للحقيقي تقريبًا وهي ميالة ميلًا ظاهرًا إلى عدم التمييز بينهما.

يقوم سلطان الفاتحين وتبني قوة الممالك على تخيل الأمم، ولا تنجر الجماعات إلا بالتأثير في ذلك التخيل، وكل حوادث التاريخ العظيمة كإيجاد البوذية وتشييد أركان المسيحية والإسلام وقيام البروتستانتية، والثورة فيما مضى، وكإغارة الأفكار الاشتراكية المزعجة في هذه الأيام … إنما هي نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة في تخيل الجماعات.

ذلك هو العلة في أن جميع أقطاب السياسة في كل عصر، وفي كل أمة حتى أشدهم استبدادًا اعتبروا تخيل أممهم أساسًا تقوم عليها قوتهم، وما فكروا يومًا في أن يحكموا الناس بدونه.

قال نابليون في مجلس شورى الحكومة: (إنني أتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستولت على مصر؛ إذ استلمت وتوجت بالظفر في حرب إيتاليا لأني قلت بعصمة البابا، ولو كنت أحكم شعبًا يهوديًّا لأعدت معبد سليمان). ويظهر لي أنه لم يقم منذ الإسكندر الأكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير في تخيل الجماعات مثل نابليون، فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نسيه في انتصاراته وخطبه وأحاديثه، ولا في عمل من أعماله، وكان يفكر فيه وهو على سرير موته.

أما كيفية التأثير في تخيل الجماعات، فسنذكرها، وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى أن ذلك لا يكون أبدًا بمخاطبة الإدراك والعقل، أعني بطريقة البحث والتقرير، بدليل أن (أنطوان) لم يهيج نفوس الأمة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان، بل أثارها لما قرأ وصية المقتول وأشار بالقوم إلى جثته.

الذي يؤثر في خيال الجماعات هو ما يتمثل لها في صورة أخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة إلا بما فيه غرابة أو سر مكنون، كانتصار باهر، أو معجزة بالغة، أو جرم فظيع، أو أمل دونه الأمل، فينبغي أن ترمي الأشياء جملة على علاتها وأن لا يوضح كنهها أبدًا؛ لأن مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير في تصور الجماعات، لكن جرمًا واحدًا كبيرًا أو رزءًا كبيرًا واحدًا يؤثر فيه أثرًا شديدًا وإن قل ضرره كثيرًا عن ضرر مائة الرزء كلها، وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التي أخنت على باريس منذ بضع سنين فأماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة في بضع أسابيع؛ لأن هذه المقتلة لم تبد أمام الجمهور في صورة بينة، بل علموها من الإحصاءات اليومية التي كانت تنشر في حينها، ولو أن حادثًا واحدًا قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك في يوم واحد في الطريق العام، كما لو سقط برج إيفل، لتأثروا منه تأثرًا عظيمًا.

انقطعت أخبار إحدى بواخر الأطلانطيق فظن أنها غرقت، وكان لذلك في خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام، ودل الإحصاء الرسمي على غرق ٨٥٠ مركبًا شراعيًّا و٢٠٣ مركب تجاري في سنة ١٨٩٤ وحدها، ضاع معها من الأرواح والأرزاق ما لا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت، ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة.

نتج من هذا أن الحوادث ليست هي التي تؤثر بذاتها في تخيل الجماعات، بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها، أعني أنه يجب أن يتكون من مجموعها صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه، ومن عرف كيف يؤثر في تخيل الجماعات عرف كيف يقودها.

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات

بينا أن الجماعات لا تتعقل، وأنها تقبل الأفكار أو ترفضها جملة، وأنها لا تطيق المعارضة ولا تحتمل المناظرة، وأن المؤثرات التي تفعل فيها تحتل منها دائرة الإدراك كلها، وسرعان ما تنتقل من التأثر إلى الفعل، وأنها إذا حسن التأثير فيها تضحي نفوسها فداء للمقصد التي وجهت إليه. وكذلك عرفنا أن مشاعرها شديدة متطرفة، فالميل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة، والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة، وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها.

إذا دققنا النظر في اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان، أو في أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتي حصلت في القرن الماضي رأينا أنها تتصبغ دائمًا بصبغة مخصوصة لا يسعني التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الديني.

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية: كعبادة ذاتٍ يتوهم أنها فوق الذوات، والخوف من القوة الخفية التي تظن لها، والخضوع الأعمى لأوامرها، واستحالة البحث في تعاليمها، والرغبة في نشرها، والنزوع إلى معاداة من لا يقول بها. ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة، فهو من طبيعة الشعور الديني سواء كان محله إلهًا لا يرى أو معبودًا من الحجر أو من الشجر أو بطلًا من الشجعان أو رأيًا سياسيًّا، فكله شعور تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات، والجماعات ترى أن في كل ما خلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر.

وليس المتدين هو الذي يعبد إلهًا، بل متى أسلم الإنسان عقله وإرادته وما فيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصوده ومرمى أفكاره وأقواله، فهو دائن بما توجه إليه.

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور ديني، ويلازمان كل من اعتقد أنه ملك ناصية السعادة في الحياة الدنيا أو في الآخرة، وهاتان الصفتان توجدان في كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات، فقد كان اليعاقبة زمن (الهول) متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين، ومنبع حماسة الفريقين في القسوة واحد.

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الأعمى والتعصب الوحشي والإكراه في الدعوة، وكلها صفات من لوازم الشعور الديني، وما البطل الذي تهلل الجماعة له إلا إله في نظرها. هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عامًا، ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد إخلاصًا من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس إلى حتفها أكثر منه، وما كان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه.

إن جميع موجدي الديانات ومؤسسي المذاهب السياسية لم يقيموها إلا لأنهم تمكنوا من إحداث التعصب الذي يجعل الإنسان يرى سعادته في العبادة والطاعة، ويهيئه لأن يهب حياته لمعبوده. هكذا كان الحال في كل وقت وزمان، ولقد أصاب موسيو (فوستان دي كولنج) حيث قال في كتابه على بلاد الغلوا الرومانية إن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة، ولكن بما وجد في النفوس من الإعجاب بها إعجابًا دينيًّا قال: (ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون، وإلا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من جند الإمبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة)، إنما أطاع القوم لأن الإمبراطور الذي كان يمثل عظمة الرومان كان يُعبد عبادة الآلهة باتفاق، فكان له في كل قرية حتى الحقيرة محراب، وقد سرى في المملكة من أولها إلى آخرها دين جديد، مناسكه عبادة القياصرة. وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها، وكانت ستين مدينة، هيكلًا للإمبراطور (أوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون)، وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الأول في نفوس سكان تلك البلاد، ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع، فإن الخنوع لا يوجد في أمة بتمامها، ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون، وما كانت البطانة التي هي تعبد الأمير وحدها، بل روما جميعًا، بل الغلوا كلها، بل بلاد الأندلس واليونان وآسيا.

ليس لفاتحي النفوس في هذا الزمان معابد وهياكل، لكن لهم صور وتماثيل، والعبادة التي يعبدون بها لا تخالف كثيرًا ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على إجادة معرفة هذا المبحث في علم روح الجماعات. من لم يكن إلهًا لها فليس شيئًا مذكورًا.

لا يقولن قائل تلك أوهام كانت في الأعصر الماضية فبددها العقل في هذه الأيام؛ لأن العقل لم يكن لينتصر في محاربة الشعور أبدًا، نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الألوهية، والدين الذي دانت لحكمه ذلك الزمن المديد، ولكن معبوداتها لم تكثر كثرتها منذ مائة عام، وهي لم تقم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هذه الأيام، والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة (بولنجية) التي حصلت في السنين الأخيرة يعلمون سهولة ظهور الشعور الديني في الجماعات، فلم يكن من فندق أو قهوة في قرية إلا وفيها صورة البطل، وكانوا ينسبون إليه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها. وكان الألوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله، ولو كان في أخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلًا لنال المكان الأرفع في التاريخ.

لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لا بد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الإلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها إلا إذا لبثت ثوب الدين الذي يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين، بل لو أمكن إدخال عدم الاعتقاد في الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد ديني، ولصار في الخارج دينًا يتعبد به الناس. ومن الأمثلة الغريبة على ما نقول ما كان من أمر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين، فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمي (نهيلست) الذي روى لنا العلامة (رستوفيسكي) قصته، قال: أشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمي، فعمد إلى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين أحد المعابد، وحطمها، وأطفأ الشموع، ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و(موليشوت)، ثم تولاه التقى فأوقد الشموع حول هاتيك الكتب. فمحَلُ اعتقاده الديني كان قد تبدل، ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبدًا.

وعليه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الإدراك إلا إذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي حتمًا إليها اعتقاد الجماعات. ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغي البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين، فإن مؤرخنا العظيم (تاين) لم ينظر في الثورة الفرنساوية إلا نظرًا طبيعيًّا، لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالبًا، نعم، لم تفته من الوقائع فائتة، ولكنه غفل عن البحث في روح الاجتماع فلم يصل إلى علل ما أثبت منها، وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من الدماء والتوحش والقسوة، فلم ير في أبطال ذلك الزمن الكبير إلا قطيعًا من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم، ولم يجدوا مانعًا يصدهم عما كانوا يشتهون.

على أنه لا سبيل لإدراك حقيقة ما كان في الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة إلى نشر الدعوة وإعلان الحرب على جميع الملوك إلا إذا فطن الباحث أنها، أي الثورة، أثر معتقد ديني جديد حل في نفوس الجماعات، ومثل ذلك أيضًا كانت قيامة الإصلاح (البروتستانتية) ومقتلة صانت بارتلمي و(الاضطهاد) و(الهول)، فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذي حل في قلبه إلى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذه رحمة ولا حنان. لذلك كانت وسائل الاضطهاد هي وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين، ولو أنهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين.

ولا تظهر في الوجود أمثال الانقلابات التي مر ذكرها إلا إذا قذفت من جوف الجماعة، وليس في استطاعة أكبر المستبدين إثارتها، والمؤرخون الذين رووا لنا أن الملك هو السبب في واقعة صانت بارتلمي كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معًا؛ لأن مثل هذه المظاهرات لا تخرج إلا من قلب الجماعات ولا يقدر أكبر الملوك وأشدهم استبدادًا على أكثر من تعجيلها أو تأجيلها، فليس الملوك هم الذين أحدثوا واقعة صانت بارتلمي ولا حروب الدين، كما أن (روبسبير) و(دانتون) و(صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول)، بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك.

الباب الثاني

أفكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها

فرغنا من البحث في تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل، ونريد الآن أن نبحث في كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها في نفوسها.

العوامل التي تولد الآراء والاعتقادات في الجماعات قسمان: بعيدة، وقريبة.

فأما العوامل البعيدة فهي التي تهيئ الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض، أعني أنها التربة التي تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين، وظهور تلك الأفكار يكون فجأة، فقد تشبه في انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة، إلا أن الواقع أنها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه.

وأما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه، ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى الفعل، أعني أنها تقوم الفكر وتقذف به إلى الخارج مع جميع ما يحتمل من النتائج، فهي التي تدفع الجماعات فجأة إلى القيام بما تمكن من نفسها من الأعمال، وهي علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك إلى الأوج أو ضد حكومة تهبط إلى الدرك الأسفل.

تتعاقب هذه العوامل بقسميها في جميع حوادث التاريخ العظيمة، ففي الثورة الفرنساوية، وهي أكبر مثال لتلك الحوادث، كانت العوامل البعيدة هي كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم، وهي التي هيأت روح الجماعات، ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في إجراء إصلاحات لا تعد شيئًا كبيرًا، وهي التي أثارت الجماعات بالسهولة.

ومن العوامل البعيدة ما هو عام، بمعنى أنه يؤثر في معتقدات كل جماعة، وفي آرائها، وهي الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية.

وسنبحث في شأن كل واحد من هذه العوامل.

(١) الشعب

بدأنا به لأن له المقام الأول بين العوامل، فله وحده من الأثر ما يربو على آثارها كلها. وقد وفينا البحث فيه حقه في كتابنا (النواميس النفسية لتطور الأمم)، حتى لم يعد من المفيد أن ترجع إليه هنا إذ بينا هناك ما هو الشعب من حيث التاريخ، وكيف أنه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى، وتكون له روح ترجع إليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته، كذلك بينا أن قوة الشعب تبلغ حدًّا يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة إلى أخرى بدون أن يتغير تغيرًا عامًّا، وخصصنا أربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد. ولأنه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك؛ يرى القارئ أنه رغم ظواهر الحال التي قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أي عنصر من عناصر المدنية من أمة إلى أخرى إلا إذا أصابها التغير والتحول. نعم إن البيئة والأحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذي هي فيه، وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضي على الدوام إذا تضارب مع مقتضيات الشعب، أعني مع سلسلة تلك المؤثرات الوراثية.

على أنَّا سنعود إلى ذكر شأن الشعب في كثير من فصول هذا الكتاب، ونوضح أنه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات، وأن ذلك هو السبب في اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافًا كبيرًا، وكذا المؤثرات التي تتأثر بها.

(٢) التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضي الأمة في أفكارها وحاجاتها ومشاعرها، فهي تشخص روح الشعب، ولها في القوم تأثير عظيم.

تقدم علم تركيب الأجسام من يوم أن بَيَّن علم التكوين مقدار تأثير الماضي في تطور الكائنات، وسيتقدم علم التاريخ أيضًا حينما ينتشر هذا الاكتشاف؛ لأن انتشاره لم يعم،

بدليل أن كثيرًا من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضي ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها وتنشئ نفسها من جديد غير مستهدية في ذلك إلا بنور العقل وحده، وفاتهم أن الأمة جسم منظم أوجده الماضي، فهي كغيرها من الأجسام لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور إلا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل.

والذي يقود الناس ولا سيما إذا اجتمعوا إنما هي التقاليد، وهم لا يسهل عليهم أن يغيروا منها سوى الأسماء والأشكال.

وليس هذا مما يوجب الأسف؛ إذ لولا التقاليد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة، ألا ترى أن هم الناس منذ وُجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد، فإذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها. والحاصل أنه لا مدنية إلا بالتقاليد، ثم الرقي موقوف على هدمها. والصعوبة في إيجاد التوازن بين التقلب والبقاء، إلا أنها صعوبة كبرى، فإذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال، وأصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن، ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة؛ لأنها لا تأتي إلا بإحدى نتيجتين: فإما أن الحلقات التي تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضي إلى التربع في سيادته بدون تغيير ما. وإما أن تبقى تلك الحلقات منثورة، فهي الفوضى وخليفتها التقهقر والانحطاط.

لذلك كان أكبر النعم التي يجب أن تصبو إليها الأمة هي المحافظة على النظامات التي ورثتها، وأن تسير في الانتقال بها من طور إلى أكمل منه على مهل وبلا اهتزاز، ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به إلا دولة الرومان في الأزمان الخالية، وأمة الإنكليز في الأزمان الحاضرة.

وأشد الناس محافظة على الأفكار التقليدية وأصعبهم مراسًا في معارضة من يحاول تبديلها: هي الجماعات، خصوصًا الجماعات التي تتكون منها فئات معينة. وقد سبق لي أن أفضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضي، وبيَّنت أن أشد الثورات عنفًا لا تؤدي إلا إلى تغيير في الألفاظ، ومن شهد في آخر القرن الماضي هدم الكنائس وطرد القسوس وإعدامهم والاضطهاد العام الذي كان واقعًا على أهل الكثلكة، كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبقَ لها أثر، لكن لم يمضِ إلا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم، فاضطرت الدولة إلى إعادة الدين الذي طمست بالأمس معالمه. ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة في تقريره إذ ذاك ونقله عنه (تاين)، قال: «إن ما هو مشاهد في كل مكان من إقامة صلاة يوم الأحد والتردد على

الكنائس يدل على أن مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع إلى عاداته الأولى، ولم يعد في الإمكان مقاومة هذا الميل في الأمة؛ لأن السواد الأعظم في حاجة إلى الدين وإلى العبادة وإلى القسوس. ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر — وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضًا — القول بإمكان إيجاد تعليم عام يكفي لإزالة الأوهام الدينية. ووجه الخطأ أن في الدين سُلوانًا للقسم الأول من المساكين، من أجل ذلك يجب أن تترك للأمة قسوسها ومعابدها وعبادتها.»

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها، وهو مَثل ليس كمِثله مَثل يبين سلطان التقاليد على النفوس، وليست الأشباح التي لا يستهان بها هي التي تسكن المعابد، ولا في القصور يقيم عتاة المستبدين، أولئك يبادون في طرفة عين. إنما الذي لا قبل لنا به هم أولئك الأرباب الذين تمكنوا في النفوس، فتحكموا في الأرواح، فلا يزول ملكهم إلا بفعل الزمان رويدًا رويدًا وجيلًا بعد جيل.

(٣) الزمان

أهم العوامل في المسائل الذي يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان، كما أنه كذلك في المسائل التي يبحث عنها علم الأجسام المنظمة، فهو الموجد الحقيقي الوحيد وهو الهادم القوي الوحيد. هو الذي كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التي اشتملت على أصل الوجود النوعي إلى مقام الإنسان، وكل ظاهرة وكل حادثة لا تتغير ولا تتحول إلا بالزمان. ولقد أصاب من قال إن النملة إذا امتد أمامها الزمن وَسِعها أن تجعل الجبل الرفيع مهادًا، ولو أن موجودًا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التي يعترف بها المؤمنون للواحد الديان.

بحثُنا هذا قاصر على تأثير الزمان في آراء الجماعات ومعتقداتها، وهو فيها له كذلك الأثر العظيم، فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الأخرى من التي لا تكون بدونه كالشعب وغيره، وهو الذي يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها، ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال.

والزمان هو بالأخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيئ التربة التي نبتت فيها، ولذلك صح وجود بعض الأفكار في زمن وامتنع وجودها في زمن آخر. وهو الذي يذكر المعتقدات بعضها فوق بعض، وكذا الأفكار، فيهيئ بذلك قيام الآراء والمذاهب في العصور المتتابعة، لأنها لا تنبت صدفة ولا توجد اتفاقًا، بل إن لكل واحد منها جذورًا

تمتد في زمن بعيد، فإذا انبثقت فإنما الزمان هو الذي هيأ تفتح أزهارها، وإذا أردت أن تعرف كنهها فارجع إلى ماضيها. هي بنات الماضي وهي أمهات المستقبل، وهي إماء الزمان على الدوام.

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقة فينا، وما علينا إلا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل. نحن الآن في فزع شديد من مقاصد الجماعات التي تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة، ومن الانقلاب المنتظر فيها، ولكن الزمان سيتكفل وحده بإعادة التوازن بيننا. قال موسيو (لافيس): «ما من نظام يقوم في يوم واحد، بل لا بد في تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الأعصر والأجيال، فقد بقي نظام حكم الشرفاء مضطربًا غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس، كذلك قطعت الملوكية المطلقة قرونًا قبل أن تهتدي إلى الأصول المنظمة التي تدير بها حكومة البلاد، وكم من اضطراب وقع في أدوار هذا الانتقال.»

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون إلى أن النظامات تُقوِّم معوجَّ الهيئة الاجتماعية، وأن تقدم الأمم أثر من آثار إتقان تلك النظامات وإصلاح الحكومات، وأنه يمكن إحداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الأوامر والقوانين. كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية في بدايتها، وإليه يذهب الآن أيضًا من اتخذوا مجرد الخوض في الاجتماعات مذهبًا.

ذاك وهم تأصل في الأفكار لما تبدده التجارب على تكرارها، وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده، لكنهم لم يلاقوا صعوبة في إقامة الدليل، على أن النظامات بنات الأفكار والمشاعر والأخلاق، وأن الأفكار والمشاعر والأخلاق لا تتغير بتغيير القوانين، وأن الأمم لا تختار نظاماتها كما تشتهي، كما أنها لا تملك اختيار لون أعينها وشعر رءوسها، بل إن النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذي هي فيه، فليست هي التي تخلق زمنها، ولكنها هي التي أوجدها زمانها، وليست الأمم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء، بل كما تشاء أخلاقها وطباعها. وكما أن كل نظام لم يستقر إلا بعد قرون عدة كذلك ينبغي لتغييره قرون عدة. وليس للنظامات قيمة نوعية في ذاتها، فلا هي حسنة لذاتها ولا هي رديئة لذاتها. وأن ما صلح منها لأمة في زمان يجوز أن يكون مضرًّا في أمة أخرى.

لهذا كان من المحقق أن الأمة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها، نعم في إمكانها أن تبدل أسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية، لكن اللب يبقى كما كان. أما الأسماء فهي عناوين لا يلتفت إليها المؤرخ الذي ينقب عن حقائق الأشياء، ألا ترى أن أعظم أمة ديمقراطية في الأرض هي الأمة الإنكليزية مع كونها تعيش تحت إمرة حكومة ملكية، وأن أكبر أمة حفها الاستبداد هي الجمهوريات الإسبانية الأمريكية رغم نظامها الجمهوري الذي يحكمها؛ ذلك ما يعترف به للإنكليز أعظم الجمهوريين تقدمًا في الولايات المتحدة. وإني أذكر للقراء ما جاء في جريدة (فروم) الأمريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة في ديسمبر سنة ١٨٩٤، قالت: «لا ينبغي أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء أن إنكلترا هي أول أمم الأرض في الديمقراطية، أعني الأمة التي بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته، والتي بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام.» وبالجملة، قائد الأمم أخلاقها وطباعها لا حكوماتها، تلك قضية حاولت بيانها في كتابي السابق، وأثبتها بأوضح دليل وأقوى مثال.

لذلك كان من العبث جدًّا إضاعة الزمن في خلق نظام جديد من جديد، بل لا فائدة من شد رحال علم المعاني والبيان لخلق مثل هذا النظام، فإن ذلك من عمل الجهلاء. والحاجة والزمان هما الكفيلان بإعداده إذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان. هذا الذي اعتمد عليه الإنكليز السكسونيون، وهذا هو الذي يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولي) ضمن كلام يجب على أدعياء السياسة في الأمم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم. بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الإنكليزية من الآثار الطيبة على ما يظهر بها من الرداءة والتناقض والبُعد عن المعقول، ثم قارن بين نظام إنكلترا والبضعة عشر نظامًا التي اختنقت بين تقلصات الأمم اللاتينية في أوروبا وأمريكا، وأَوْضَحَ أن الأول لم ينله التغيير إلا على مهل جزءًا بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمي أبدًا، ثم قال: «القواعد التي سار عليها المائتان وخمسون برلمانًا من عهد حنًّا إلى عهد فيكتوريا في مداولاتها وقراراتها، هي أنها ما اهتمت مطلقًا بحسن التنسيق، بل كان كل همها في الفائدة، ولم ترفع شاذًّا لشذوذه، ولم تأتِ بجديد إلا إذا تحققت أن حرجًا استولى على النفوس من أجله، ولم تجدد إلا بمقدار ما تتفادى من هذا الحرج، ولم تقرر مبدأ أعم من الضرورة التي اقتضته.»

ولو أردنا بيان كون القوانين في كل أمة منتزعة من روحها، وأنه لا يمكن لذلك تغييرها عنوة وقسرًا لَلَزِم أن نأتي على كل قانون ونخوض في كل نظام، فمثلًا يجوز

الجدل فلسفيًّا في هل حصر السلطة وإرجاعها في النهاية إلى يد واحدة أفضل من تفريقها، أم العكس أولى. لكن إذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك إلى حصر السلطة وجمعها، ورأينا من جهة أخرى أن ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه؛ كان لنا أن نقول: إن هذا النظام هو ابن الضرورة التي لا مفر منها، وإنه شرط من شروط حياة تلك الأمة، وأن نرثي لحال أولئك الذين قصرت أحلامهم من السياسيين الذين يذهبون إلى وجوب إبطال ذلك النظام. ولو أن الصدفة ساعدتهم على نيل ما يبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلًا إلى حصر السلطة بأشد مما هي عليه. والذي يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة في أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الأخص من اختلاف عناصر الأمة وبين ميل البعض إلى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الألمانية، يتبين له أن العناصر المختلفة التي لا تزال حية في بلادنا لا تزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد، وأن أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيمًا اعتباريًّا لا طبيعيًّا إلى أقسام متعددة توصلًا إلى مزج الأقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض. فإذا أمكن اليوم تحقيق ما يصبو إليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الأعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك إلى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس، ولا يغفل عن ذلك إلا من نسي تاريخنا.

نتج مما تقدم أن التأثير الحقيقي في روح الجماعات لا يكون من طريق النظامات، وإذا لفتنا الذهن إلى الولايات المتحدة رأيناها ترفل في حلل الرخاء وتخطر في جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية، ثم إذا رجعنا إلى الجمهوريات الإسبانية الأمريكية — ألفيناها وهي متمتعة بنظام مثله تتعثر في أذيال التقهقر والفوضى، وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لا في سعادة الأولى ولا في شقاء الثانية، وبأن الذي يحكم الأمم إنما هو أخلاقها. وكل نظام لا يندمج مع هذه الأخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم. نعم، قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة، وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون إلزام الأمم بنظامات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم في آثار الأولياء والصالحين. وقد يقال إن النظامات تؤثر في نفوس الجماعات لأنها تفضي إلى مثل تلك الحروب والثورات. والصحيح أن لا تأثير لها البتة؛ لأنا قد عرفنا أنها لا قيمة لها في ذاتها سواء كان الغلبة لها أم عليها، وإنما الذي يؤثر في الجماعات أوهام وألفاظ، وعلى الأخص الألفاظ، تلك الألفاظ الخيالية القوية التي سنبين سلطانها.

(٥) التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وإن كانت في الغالب من قبيل الخيالات، وقد بينا في غير هذا المكان ما لتلك الأفكار من القوة وما هي عليه من القلة.

ومن الأفكار السائدة في هذا العصر أن في التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييرًا محسوسًا، وأن نتيجته التي لا يشكون فيها هي إصلاحهم، بل إيجاد المساواة بينهم. ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين، وأصبح التعرض له من أصعب الأمور، كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة في الزمن السابق.

ولكن آراء الديمقراطيين في هذا الموضوع كما هي في كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما أثبته علم النفس، ولما دلت عليه التجارب، فمما أثبته الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصًا (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد في تهذيب الإنسان ولا في سعادته، ولا يغير من غرائزه وشهواته التي تلقاها بالوراثة، وأنه إذا ساء طريقه كان ضرره أكبر من نفعه. وأيد علماء الإحصاء هذه النظريات، فقالوا إن الميل إلى الجرائم يزداد بانتشار التعليم، أو هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة، وإن ألد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالبًا إلى مذهبهم ممن حازوا السبق في المدارس. وأشار موسيو (ادلف جيو)، وهو أحد أعاظم القضاة أنه يوجد الآن في كل أربعة آلاف مجرم ثلاثة آلاف متعلمون وألف واحد أميون، وأن عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة ألف نسمة إلى (٥٥٢)، أعني بنسبة (١٣٣) في المائة، ولاحظ أيضًا هو ورفقاؤه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين أبدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها في المدارس الإجبارية المجانية.

نعم مما لا يشك فيه إنسان أن التعليم إذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة، فإذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر في رقي الأخلاق، فإنه ينمي الكفاءات الفنية، ولكن من سوء الحظ أن الأمم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة، ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال) و(فوستيل دي كولانج) و(تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لا تزال تلك الأمم على خطئها فيها. وقد شرحت أنا أيضًا في كتاب لي، أصبح قديمًا، أن طريقة التعليم الحالي عندنا تحول القسم الأكبر ممن يتلقونه إلى أعداء للهيئة الاجتماعية، وتزيد كثيرًا في أصحاب أشد المذاهب الاشتراكية ضررًا.

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آتٍ من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها. ذلك أنهم قالوا إن الحفظ عن ظهر القلب يربي الذكاء ويقوي الفطنة، ثم انتقلوا من هذا إلى وجوب الإكثار من الحفظ ما استطاعوا، وصار المتعلم في المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذي يتلقى علوم الأستاذية لا يعمل إلا للحفظ، وهو في ذلك كله لا يدرب مداركه ولا يمرن ملكة الإقدام على العمل من نفسه؛ لأن التعليم في نظره ينحصر في إلقاء المحفوظ وفي الخضوع. قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الأقدمين: «إن حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن في النحو أو مختصر، وحسن الإلقاء، وحسن التقليد، تربية هي من الهزء بمكان، إذ كل همة يبديها المتعلم في هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بأن المعلم مصون عن الخطأ، وذلك لا ينتج إلا نقصنا وضعفنا.»

ولو أن ضرر هذه التربية كان قاصرًا على عدم فائدتها لاكتفينا بالعطف على أولئك الأطفال المساكين الذين يحفظون في المدرسة نسب (كلوتير) ومصارعات (نوستيري) وفصيلات الحيوان وغير ذلك، بدلًا من أن يتعلموا أشياء كثيرة أخر نافعة، لكن ضررها أكبر من ذلك، فهي تولد في نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التي هو عليها بمقتضى نشأته، ورغبة شديدة في الانسلاخ عنها، فلا الصانع يبغي البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل إلى الدوام في فلاحته، وأقل الناس في الطبقة الوسطى لا يختار لأبنائه عملًا إلا في وظائف الحكومة. والمدرسة لا تربي رجالًا قادرين على الحياة، وإنما تخرج عمالًا لوظائف ينجح فيها الإنسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم إلى عمل من ذاته. فهي توجد في أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشًا من الصعاليك المتعضين المتهيئين دائمًا للثورة. وفي أعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التي تعتقد اعتقادًا دينيًّا في قدرة الحكومة وبعد إمكانها، وهي مع ذلك لا تنفك عن القدح فيها والتي تخطئ ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت، والتي لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه.

أما الحكومة التي تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها أن تستصنع منهم إلا القليل، وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل، فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء. احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة إلى القاعدة، أي من الكاتب الصغير إلى المعلم فالمدير، وصرنا نرى التاجر لا يجد إلا مع الشفقة نائبًا يتولى أعماله في المستعمرات. ونشاهد الألوف من الشهادات مكتظة أمام باب كل وظيفة مهما صغرت. ويوجد الآن في مديرية

السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون ألفًا لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا إلى الحكومة يطلبون القوت منها، ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلًا، فعدد الغضاب كثير بالضرورة، وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أي رئيس كان وكيفما كان الغرض. ذلك لأن اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلًا إلى استعمالها هو من أنجع الوسائل في تهيئة المرء إلى الخروج على أمته.[١]

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار، وإنما التجارب وهي آخر مرب للأمم، ستُظهر لنا خطأنا، فهي التي تبرهن على ضرورة الإقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وإبطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فني عملي يرد النشء إلى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية، وغير ذلك من الأعمال التي يجتهد أولئك النشء في الهرب منها.

هذا التعليم الفني الذي تطلبه الآن العقول النيرة هو الذي تلقاه آباؤنا وهو الذي حافظت عليه الأمم التي تحكم الدنيا بقوة إرادتها وبما أوتيت من الإقدام الذاتي في الأعمال، والقدرة على التصرف بالمشروعات.

كتب أحد كبار المفكرين موسيو (تاين) صفحات في هذا الموضوع ما أجلها، وسأنقل للقراء طرفًا عنها فيما يلي، فأبان بأوضح برهان أن تربيتنا في الماضي كانت تماثل التربية عند الإنكليز أو الأمريكان في الوقت الحاضر أو ما يقرب من ذلك، ثم أتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الإنكليزية، وأعرب بأفصح لسان عن نتائج الاثنتين.

ولو كان الاكتساب السطحي لتلك المعارف الكثيرة وإجادة تلاوة تلك الكتب التي لا عد لها مما يرقي ملكات العقل فينا، لأجهدنا النفس لاحتمال مضار التربية التي تعودناها، ولو لم تخرج إلا عطلة ممتعضين، فهل لها هذا الأثر؟ لا، والأسف يملأ قلبنا أن الإدراك والتجارب والإقدام والخلق هي عدة الحياة ولا نجاح إلا بها، وليس شيء من ذلك في الكتب. الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها، لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها إلى الدماغ.

أما كون التعليم الفني يربي العقل بما لا ينال من التربية العلمية الجارية، فذلك ما شرحه مسيو (تاين) شرحًا وافيًا إذ قال: «لا تتولد الأفكار إلا في مولدها الطبيعي الاعتيادي، والذي ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التي يتأثر بها الشاب كل يوم في المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامي ودائرة الأشغال والمستشفى، ومن مشاهدة الآلات والعدد والأدوات، ومن العمليات، ومن اجتماع المبتاعين والفعلة، ومن

العمل نفسه، ومما يصنع رديئًا كان الصنع أو حسنًا غالي الثمن أو رخيصًا. هذه هي الملتقطات الصغيرة التي تتناولها العين والأذن أو الأيدي أو الشم أيضًا التقاطًا غير مقصود، حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزًا تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلًا أو آجلًا إلى تركيب جديد أو تبسيط مركب أو طريقة اقتصاد، أو تحسين اختراع، والشاب الفرنساوي محروم من هذا الامتزاج النفسي؛ فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية في الوقت الذي هو أحوج للاستفادة منها، لأنه مقصور مدى سبع سنين أو ثمانٍ في المدرسة بعيدًا عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التي تحصل في الذهن صورة قوية صحيحة من الأشياء والناس، وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله، فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات ما كان أنفعها وأكبر أهميتها، بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماضٍ ومستقبلٍ سعيد، إليك أولًا نصف الذين يتقدمون إلى الامتحان أو الثلثين أنهم لا ينجحون، وأخرج من بين الناجحين نصفهم أو ثلثيهم، وهم الذين أبلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون، كلفوهم بما لا يطيقون إذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو أمام لوحة أن يكونوا مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقي على السامعين جملة من العلوم التي يبحث فيها عن جميع ما علم الإنسان، والواقع أنهم كانوا ذلك أو ما يقرب منه مدة ساعتين، ولكنهم لا يبقون كذلك بعد مضي شهر من الزمان، فلا يقدرون أن يجوزوا الامتحان مرة أخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم، ثم هم لا يكسبون منها جديدًا، لأن الملكات ألقت سلاحها ونضب ماء الإثمار منها. إذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام، وهو في الغالب الرجل الذي قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع إليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على أن يدور في دائرة معينة، وأن يستقر على الدوران في الدائرة عينها وينزوي إلى العمل الضيق الذي أقام فيه وصار يؤديه بانتظام، ولا شيء بعد ذلك. هذه هي الثمرة في المتوسط، ولا شك في أن الوارد لا يساوي المنصرف. أما في إنكلترا وفي أمريكا كما كان في فرنسا قبل سنة ١٧٨٩، فإنهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوي الثمرة ما صرف أو تربو عليه.»

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الإنكليز السكسونيين، فأبان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة ما لنا، وأن التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشيء نفسه، فالمهندس مثلًا يتكون في المصنع لا في المدرسة، وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل في حرفته إلى الحد الذي تصل إليه قدرته

العقلية فيكون عاملًا أو رئيس عمال إذا قعد به الذكاء عند هذا القدر، وهو مهندس إذا قاده استعداده إلى هذا الدرج. تلك هي الطريقة الديمقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة، لا التي تجعل مستقبل المرء كله معلقًا على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو في التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة، قال موسيو (تاين):

> يدخل التلميذ والعود أخضر في المستشفى أو المعدن أو المصنع أو مكتب المتشرع، فيتعلم ويقضي زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامي أو المبتدئ في الحرفة عندنا، ويكون قد تلقى أولًا بعض دروس عامة مختصرة أوجدت فيه محيطًا تعشش فيه الملاحظات التي تعرض له من يوم دخوله، ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروسًا فنية يختلف إليها في أوقات الفراغ، ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئًا منها. هذا نظام تنمو فيه القدرة العملية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير في طريق العمل المستقبل الذي اختار التمرن عليه منذ الآن. وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ما ملكت، ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحيانًا قبل ذلك إن ساعدته كفاءته ومادته منفذًا نافعًا، بل مبدئًا مقدامًا مندفعًا من ذاته، فهو عجلة في الآلة، وهو أيضًا المحرك لها.
>
> أما في فرنسا حيث سارت الطريقة الأخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين في كل جيل، فإن مجموع القوى الضائعة عظيم.

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التي تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم، فقال: امتد زمن التحضير النظري في أدوار التعليم الثلاثة: الطفولية والصبا والشباب، وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه في الكتاب انتظارًا ليوم الامتحان، يوم ينال الشهادة، يوم تتقرر الرتبة، يوم تعطى الإجازة أو الامتياز، لا انتظارًا لشيء آخر. وقد أعدوا لذلك أردأ الوسائل فأخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعي الاجتماع، فأجلوا التمرين العملي وقصروا التلامذة في حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحنًا ماديًّا بالمواد، وأجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين إلى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التي لا بد للطالب من القيام بها

إذا اكتمل، ولا ناظرين إلى الوجود الحقيقي الذي أضحى على وشك الهبوط إليه، ولا بالجمع المتلاطم الذي يجب تطبيعه بطبائعه أو إخضاعه لأحكامه قبل الانطلاق فيه، ولا بالمعترك الإنساني الذي يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح، ويبقى قائمًا على قدميه. مدارسنا لا تُكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم ما يجب أن يقتنى، لا تكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الإرادة ولا صلابة الأعصاب، بل على الضد من ذلك بدلًا من أن تجهزه وتهيئه، فإنها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم، لذلك تراه غالبًا يسقط في أول خطوة يخطوها بين الناس، ويكون في بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزي زمانًا طويلًا، وقد يصير كالأعرج ويبقى كذلك دائمًا. تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الأخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام، فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى.[٢]

كأني بالقراء يظنون أنا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع، لكن ما زلنا فيه لأنه يجب علينا لمعرفة الأفكار والمعتقدات التي تتولد الآن في الجماعات أن نعرف كيف هُيئت الأرض التي تنبت فيها، فالتعليم الذي يعطي الأمة هو المرآة التي يرى فيها مصيرها يومًا من الأيام، والذي يبذل منه الآن لشباننا يدل على مستقبل مظلم جدًّا. كذلك نفوس الجماعات إنما تتحسن، أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم، لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا في التعليم روح جماعاتنا، وكيف أنها بعد أن كانت لاهية بنفسها أو لا تشتغل بغيرها تحولت إلى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفيهقون تجار الكلام، فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفوضويين يربون في المدارس، وأن فيها تحضر أوقات انحطاط الأمم اللاتينية عما قريب.

هوامش

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالأمم اللاتينية، بل تشاهد في بلاد الصين لكونها محكومة أيضًا بنظام قوي من «المندران»، والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان، وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتبًا ضخمة عن ظهر قلبه. والصينيون الآن يرون في جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة، كذلك الحال في الهند، فمن يوم أن فتح الإنكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا

لتربيتهم كما يفعلون في إنكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم (يابوس)، إذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء ألداء أشداء ضد الحكومة الإنكليزية، وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع اليابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها. وقد أفضتُ الكلام عن ذلك في كتاب (تمدن الهند)، ولاحظه أيضًا جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة.

(٢) راجع تاين (النظام الحالي جزء ٢ صفحة ١٨٩٤)، وهذه الصفحات هي آخر ما كتب تاين تقريبًا، وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم، ولكني مع الأسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمنًا خارج فرنسا لا يدركونها على أن التربية هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها التأثير في نفس الأمة. ومن سوء الحظ أنه لا يكاد أحد عندنا يدرك أن طريقة التعليم التي نجري عليها هي من أشد عوامل الانحطاط العاجل، وأنها لا ترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده. ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب (تاين) والمشاهدات المتعلقة بالتربية في أمريكا التي ذكرها موسيو (پول بورجيه) في كتاب (بحر آخر)، فقد لاحظ هو أيضًا أن تربيتنا لا تخرج إلا أواسط محدودة كفاءتهم، فلا إقدام على العمل من أنفسهم ولا إرادة فيهم أو فوضويين. قال: «وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن إذا خاب بانحطاط أخلاقه وعجزه، أو فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب.» ثم جاء بمقارنة جديرة بالإمعان بين مدارسنا الفرنساوية التي هي مصانع إتلاف والمدارس التي تربي الرجل للحياة تربية تفوق الوصف، هناك يتبين الفرق بين الأمم الديمقراطية الصحيحة والتي ليس لها من ذلك إلا ما جاء على ألسنة خطبائها لا الذي رسخ في عقولهم.

الفصل الثاني

العوامل القريبة في أفكار الجماعات

فرغنا من البحث في العوامل البعيدة التحضيرية التي تهيئ نفوس الجماعات لظهور بعض الأميال والأفكار، وبقي علينا أن نبحث في العوامل التي تؤثر فيها مباشرة، وسنرى في الفصل الآتي كيف نستعمل هذه العوامل لنظهر آثارها كلها.

وقد بحثنا في القسم الأول من هذا الكتاب في مشاعر الجماعات وأفكارها ومداركها، ومما عرفناه يسهل علينا غالبًا استنباط الوسائل التي تؤثر فيها، فنحن نعرف مما تقدم أي العوامل يفعل في تصوراتها، ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصًا ما جاءها منها في شكل صور ترتسم في الخيال. ولما كانت مناشئ المؤثرات مختلفة كانت العوامل التي لها قوة التأثير في نفوس الجماعات تتنوع كثيرًا تبعًا لها، لهذا ينبغي الكلام في كل واحد منها، وليس البحث غير مفيد، لأن أحوال الجماعات تشبه بعض الشبه طلاسم الأرصاد عند القدماء، فإما أن نتمكن من حل طلاسمها، وإما أن نستسلم لها فتأكلنا.

(١) الصور والألفاظ والجمل

تبين عند البحث في تصور الجماعات أنها تتأثر على الأخص بالصور. وليست الصور ممكنة في كل وقت، لكن من السهل استحضارها في الذهن بالحذق في استعمال الألفاظ والجمل، ومتى كان المستعمل لها بارعًا فلها قوة السحر عند معتقديه في الزمن السابق، فهي التي تثير في نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب، وهي التي تسكنها إذا جاشت، ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الألفاظ والجمل لأمكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم.

السر في تأثير الألفاظ للصور التي تحضر في الذهن بواسطتها، وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية، بل الغالب أن أشدها تأثيرًا ما كان معناه غير واضح تمامًا،

مثال ذلك كلمات: ديموقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية ... وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج في تحديده إلى مؤلفات ضخمة، والكل يسلم أن لها سلطانًا ينساب في النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها، وفيها تتمثل الأميال اللاشعورية على اختلافها والأمل في تحقيقها.

لبعض الألفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل، ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعًا أمام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احترامًا، وكثير يعتقدون أن فيها قوة إلهية. ألفاظ وجمل تثير في النفوس صورًا لا كيف لها ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والإعظام، إبهامها يزيد في قوتها الخفية، فهي آلهة لا تدركها الأبصار قد احتجبت خلف (المظلة) التي ترتعد لهيبتها فرائص العابد إذا تقدم نحوها.

ولما كانت الصور التي تستحضرها الألفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة باختلاف الأجيال والأمم وإن اتحدت صيغها، ولبعض الألفاظ صور تتلوها على الأثر كأن الكلمة منبه إذا تحرك برزت صورته.

ومن الألفاظ ما هو مجرد عن قوة استحضار صورة ما، ومنها ما تكون له تلك القوة أولًا، ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تمامًا وتصير أصواتًا فارغة تنحصر فائدتها في إعفاء المتكلم بها من التفكر والإمعان. ومن السهل على الإنسان إذا حفظ في صغره قليلًا من الألفاظ وشيئًا من الجمل المصطلح عليها أن يجتاز الحياة بها من دون احتياج إلى إجهاد نفسه بالفكر في أمر من أمور الدنيا.

من تأمل في لغة من اللغات وجد أن الألفاظ التي تتركب منها لا تتغير مع الزمان إلا ببطء عظيم، إنما الذي يتغير على الدوام هو الصور التي تلازم تلك الألفاظ والمعاني التي تؤديها، ومن هنا قلت في بعض مؤلفاتي أن ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل، خصوصًا إذا كانت لغة أمة ميتة، ونحن إذا ترجمنا إلى الفرنساوية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسيكريتية، أو أردنا فهم كتاب بلُغتنا منذ قرنين أو ثلاثة، فذلك عبارة عن إحلال الصور والمعاني المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة، وكانت معروفة لأمم لا نسبة بين حياتها وحياتنا. نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظًا وظنوا أنهم بذلك يقلدونهم في نظاماتهم، وهم إنما أثبتوا لألفاظ قديمة معاني ما كانت لها أبدًا، فأي شبه بين نظامات الإغريق ونظاماتنا، وإن تقابلت الأسماء. ألسنا نعلم أن كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه

الشرفاء ولحمته الشرفاء، اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا في قطيع من العبيد المسخرين. تلك جمعيات أشراف قروية كان الرق قوامها، ولولا الاسترقاق ما عاشت لحظة واحدة.

وتلك كلمة الحرية أي شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديمًا عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية في الأفكار أيام كان أكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث إلى الآلهة أو القوانين أو العادات في مدينة من المدن، فكان معنى وطن عند أهل أتينا أو أهل إسبرطة تمجيد المدينة لا البلاد اليونانية؛ لأنها كانت مدائن متباغضة وفي حرب مستديم، ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الأقدمين، وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة، وأهل لغات متنوعة، وديانات شتى، وقهرهم قيصر بدون عناء إذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام، وروما هي التي أوجدت وطن الغلوا بإيجادها الوحدة السياسية والدينية فيها. ما لنا ولذلك الزمن البعيد، فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن في نفوس الأمراء الفرنساويين ما نفهم نحن منه الآن إذ كانوا يحاربون الأجنبي على ملكهم كما فعل البرنس كونديه، ولا في نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا، وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لا بالبلاد التي هو منها، فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن.

وما أكثر الألفاظ التي تغير معناها تغيرًا كليًّا من جيل إلى جيل، ولم نعد ندرك معانيها الأولى إلا مع الجهد والمشقة، ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ما كان يفهمه آباء أجدادنا من بعض الألفاظ مثل ملك وعائلة ملكية، فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق.

نتج من هذا أن معاني الألفاظ غير ثابتة، وأنها عرضية أي وقتية تتغير بتغير الأجيال وتختلف باختلاف الأمم، فإذا أردنا أن نؤثر في الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الألفاظ عندها وقت مخاطبتها لا معناها القديم، ولا الذي يفهمه منها من يختلف معها في الفكر والمعقول.

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك نفور الجماعات من الصور التي تحضرها من بعض الألفاظ، وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا إلى تغيير تلك الألفاظ من دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات؛ لأن هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطًا ليس من السهل تغييره.

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد — وكان نقادًا — أن حيل أعمال القنصلية والإمبراطورية (في فرنسا) كان إلباس القسم الأكبر من النظامات القديمة لباسًا جديدًا من الألفاظ، أعني الاعتياض من ألفاظ أصبحت تؤدي في الأذهان صورًا مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها، فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية، والعونة ضرائب غير مقررة ... وهكذا.

فمن أهم وظائف سواس الأمم تسمية المسميات التي صارت الجماعات لا تطيق سماع أسمائها المعروفة بأسماء مقبولة، أو على الأقل لا مقبولة ولا مكروهة، لأن قوة الألفاظ شديدة حتى إنه يكفي تسمية أشد الأشياء كراهة للجماعات بأسماء مختارة لترضى بها. ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة، وهما كلمتان محبوبتان في زمانهما عند الناس، (من إقامة استبداد أحق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد، وإحداث مذابح في الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك).

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم إلى اختيار الألفاظ وحسن استعمالها، وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالبًا باختلاف طبقات الأمة الواحدة اختلافًا كبيرًا، فهي وإن استعملت الألفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة.

رأينا في الأمثلة التي أتينا عليها أن الزمان هو أهم العوامل في تغيير معاني الألفاظ، وكذلك تختلف المعاني في الزمن الواحد اختلافًا كليًّا عند الأمم التي اختلفت في الجنس وإن تماثلت في المدنية، ومن المتعذر إدراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل في الأمم، فلا أطيل الكلام فيه ولكني أشير إلى أن اختلاف المعاني واتحاد الألفاظ عند الأمم المختلفة يكون بالأخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظي ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالهما الآن.

الأفكار والصور التي تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافًا بَيِّنًا عند الجنسين اللاتيني والإنكليزي السكسوني، فمعنى الديمقراطية عند الأول انزواء إرادة الفرد وإقدامه على العمل من نفسه أمام إرادة المجموع وهمته، والمجموع تشخصه الحكومة،[١] فالحكومة هي المكلَّفة بإدارة كل شيء وحصر كل شيء واحتكار كل شيء وصنع كل شيء، وهي التي تلجأ إليها دائمًا الأحزاب بلا استثناء من أحرار إلى اشتراكيين إلى ملكيين. وعلى الضد من ذلك يفهم الإنكليزي السكسوني وبالأخص الأمريكي من كلمة ديموقراطية نمو إرادة الفرد وإقدامه الذاتي إلى الحد الأقصى وانزواء الحكومة بقدر ما أمكن، فلا تكلف

بعد الشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشيء حتى التعليم. وعليه فاللفظ الواحد يفيد في بلد جمود إرادة الفرد وسكون إقدامه الذاتي واستعلاء كلمة الحكومة، ويفيد في بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الأول.[٢]

(٢) الأوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الأوهام، فأقامت لموجديها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد، وما من حضارة تبلَّج صبحُها فوق ظهر الأرض إلا وكانت تلك الملوك الهائلة في طليعة جيوشها. أريد المعتقدات الدينية قديمًا والسياسية والاجتماعية في هذه الأيام هي التي شيدت هياكل الكلدان ومصر، وأقامت المساجد والبيع في القرون الوسطى، وهي التي قلبت القارة الأوروبية من الرأس إلى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع في جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية يهدمها الإنسان أحيانًا، ولكنه يعاني في ذلك هول الانقلاب العنيس، ثم هو محكوم عليه دائمًا أن يقيمها من جديد، فلولا هي ما خرج من بربرته الأولى، ولولا هي لراح مسرعًا يتخبط في أودية الخشونة والتوحش، نعم هي خيالات باطلة، وهي من نبات الأحلام، ولكنها هي التي ساقت الأمم إلى إيجاد ما في الفنون من رفيع وجميل، وما في الحضارة من عظيم وجليل.

قال (دانيال روزيار): لو أبيد ما في دور العاديات، أو ما في المكتبات العمومية، وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والآثار الفخمة التي أبدعتها الفنون والأديان؛ ما بقي في العالم شيء مما ولدته الأحلام، وما كانت الآلهة والأبطال ولا الشعراء إلا لتحدث في النفوس شيئًا من الرجال وبعضًا من الخيال، إذ لا حياة للناس بغير الأمل والرجاء. حمل العلم هذه الأمانة الثقيلة خمسين عامًا ثم تغلبت عليه قوة الخيال؛ لأنه أصبح غير قادر على الوعد بأدائها كلها عاجزًا عن الكذب إلى النهاية.

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضي بهدم الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عاش بها آباؤنا قرونًا وأجيالًا، فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا أيضًا منابع الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء، وبرزت من خلف الخيال الذي خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التي لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء.

سارت الفلسفة إلى الأمام شوطًا بعيدًا، ولكنها مع تقدمها لم تهيئ للجماعات خيالًا يلذها، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام، لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار

البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء. إن الحقيقة لم تكن أبدًا العامل الأكبر في تطور الأمم، ولكنه الباطل على الدوام. وإذا بحثت عن السبب في قوة مذهب الاشتراكية في عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذي لا يزال حيًّا في العقول، فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التي تبرهن على فساده، ذلك لأن قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الأشياء جهلًا كافيًا يجرئهم على وعد الناس بالسعادة في الحياة، والآن أصبح هذا الوهم سائدًا فوق أطلال الزمن الماضي وله الملك آجلًا، فما كانت الجماعات في ظمأ إلى الحقيقة طول حياتها، وإذا تبدت أمامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الأوهام التي ترضى الإمرة عليها لمن أضلها، والويل منها لمن هداها.

(٣) التجارب

التجارب هي على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات، وإزالة الأوهام التي عظم ضررها، إنما ينبغي أن تكون عامة ما أمكن وأن تتكرر؛ إذ تجارب جيل لا تؤثر غالبًا في الذي يليه، ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل، بل تصلح لبيان أنه يجب تكرار التجارب من جيل إلى جيل ليكوِّن بعض الأثر وليتوصل بها إلى زعزعة الوهم المتأصل في نفوس الجماعة.

ومن المحقق أن مؤرخي العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن، والذي تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها؛ لأن الناس لم يباشروا نظائرها في زمن من الأزمان.

وأكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية؛ لأنها تدل على أننا احتجنا إلى قتل عشرة ملايين من الرجال وإضرام نار الفتن والقلاقل في أوروبا كلها مدى عشرين عامًا، لنعرف أن الأمة لا تخلق خلقًا جديدًا بإرشاد العقل وحده. وقمنا بتجربتين منهكتين في خمسين عامًا لنثبت من طريق التجربة أن القياصرة تكلف الأمم التي تمجدها كلفة باهظة، ومع أنهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر أنهما لم تعتبرا كافيتين للإقناع، والأولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد، والثانية أدت إلى سلخ إقليم عنها وضرورة إيجاد جيش مستديم مع ذلك، وكانت الثالثة على الأبواب من عهد قريب، وهي واقعة لا محالة يومًا من الأيام، وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التي استنزفت ثروتنا لكي تقلع الأمة كلها عن الوهم بأن الجيش الألمان العرمرم لم يكن إلا عبارة عن حرس ملي[٣] لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عامًا.

ولو أردنا أن نبرهن للأمم التي تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الأجنبية، للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عامًا، ومن السهل الإكثار من الأمثلة على ما تقدم.

(٤) العقل

لولا الحاجة إلى بيان أن لا تأثير للعقل في الجماعات ما احتجنا إلى ذكره بين العوامل التي تؤثر فيها؛ لأنا قدمنا أن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، وأنها لا تعقل إلا بالمشابهات الردئية. ولهذا فإن الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها دون العقل، لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها[٤] فلأجل إقناع الجماعة ينبغي الوقوف أولًا على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها، ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص أمامها صورًا مؤثرة، وينبغي أن يكون مقتدرًا على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة، وهذه الضرورة التي تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع، هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل، لأن الخطيب يتبع في هذه الحالة سلسلة أفكاره لا حركة فكر سامعيه، فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم. أما المناطقة فلأنهم تعودوا الاقتناع بالأدلة المتسلسلة الدامغة لا يمكنهم الخروج عن عادتهم هذه في مخاطبة الجماعات، لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم، قال بعض هؤلاء المنطقيين: «إن للقياس المنطقي، أعني الجمع بين الشيء ونظيره، في الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه، وهذا اللزوم يقتضي التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر»، وهو مسلم غير أنه لا فرق بين الجماعة والمادة في عدم إدراك النظائر، بل في عدم القدرة على سماعها، ومن لم يصدق فليجرب إقناع الهمجي أو المتوحش أو الصبي بالحجة العقلية والدليل المنطقي، وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة في إقناعهم.

على أنه لا داعي للتجربة في الهمجي لمعرفة عدم تأثير الأدلة العقلية متى عارضت الشعور، ويكفينا أن نذكركم من القرون أمسكت الأوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية، وأن أكبر الناس عقلًا وأسماهم فكرًا أتوا تحت حكمها ألفي عام وبقي الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وأمكن البحث في صحتها. ولقد كان أصحاب العقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية، ومع ذلك

ليس منهم من هدته الحجة وأرشده الدليل إلى ما كان في الأوهام التي استولت على قلبه من الهزء والشطط، أو شك يومًا في صحة إساءة الشيطان، أو في ضرورة إحراق الساحرين.

رب سائل أممًا يوجب الأسف أن العقل ليس هو الذي يهدي الجموع على الدوام، نحن لا يسعنا أن نقول به، بل نرى أنه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الإنسانية في سبل المدنية والحضارة بالهمة التي أوجدتها الخيالات والأوهام، فليس لنا غنى عن الأوهام لأنها نبات الغرائز.

كل شعب يحمل في كيانه العقلي نواميس مآله في الوجود، والظاهر أنه يسير محكومًا بتلك النواميس، وأنه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى في نزعاته التي يرى أنها خارجة عن كل معقول، كذلك يظهر أحيانًا أن الأمم مدفوعة بقوى خفية مثل التي تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها، أو التي تدور بها (ذوات الأذناب) في دائرتها.

على أنه لا يسعنا أن نعرف إلا قليلًا من تلك القوى، وذلك بالبحث عنها في حركة تطور الأمة العمومية لا في الحوادث الفردية التي يخال أنها سبب ذلك التطور، إذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكوَّن من مصادفات غير معقولة بالمرة، فلقد كان مما لا يصدقه العقل أن نجارًا جاهلًا هو (غاليليه)[٥] يصير مدة ألفي عام كإله جلت قدرته يؤسس باسمه أهم أركان المدنيات في الدنيا. وكان مما لا يصدقه العقل أن عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الأكبر من الدنيا القديمة التي عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الإسكندر. كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير في أوروبا التي لها قدم راسخة في التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض، ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الأمم.

إذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيرًا في حكم الأمم، فما بالعقل، بل على الرغم منه في غالب الأحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وإنكار الذات والإيمان بالدين وحب المجد والوطن، وهي الصفات التي كانت ولا تزال أقوى دعائم المدنيات كلها.

هوامش

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التي بيدها زمام الأمر في البلاد.

(٢) شرحت القول بإسهاب في كتابي (ناموس تطور الأمم النفسي) على الفرق بين الديمقراطية عند الأمم اللاتينية والأمم السكسونية، وجاءت نتيجة بحث موسيو (پول بورجيه) في كتابه (بحر آخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وإن كان بحثه مستقلًّا بذاته.

(٣) كان رأي العامة في هذا الموضوع مبنيًّا على اجتماع النقيضين في ذهنها لما فصلناه من قبل، فكان حرسنا الملي في ذلك الزمن مؤلفًا من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى، ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم، فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم في الذهن على الصورة التي عرفها من قبل، ولا يتوجس الناس منه خيفة، وكان خطأ الجماعات متعديًا إلى قوادها كما يقع ذلك غالبًا بالنسبة للأفكار العامة، فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول ما يأتي ضمن خطابه الذي ألقاه على مجلس النواب في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٦٧، ونقله موسيو أوليفيه في كتاب نشره حديثًا، وكان ذلك القطب السياسي يتبع دائمًا أفكار الجماعة إلا أنه لم يسبقهم في فكر أبدًا؛ قال ناقلًا: «ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوي لجيشنا على التقريب إلا حرس ملي يشبه الحرس الذي كان لنا، وعليه لا أهمية له»، وهي رواية تبلغ صحتها ما بلغه رأى السياسي في ضعف مستقبل السكك الحديدية.

(٤) ترجع ملاحظاتي في فن التأثير في الجموع وضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار (باريس)، رأيت ذات يوم أناسًا يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراي اللوفر حيث مقر الحكومة، والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظًا وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للبروسيانين، فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبًا ذائع الصيت ليخطب في الناس، وهم ينادون الموت الموت عاجلًا، وكنت أنتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله إن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون، وأن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب، غير أني بهتُّ — كنت شابًّا في ذلك الحين — إذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع: «سيأخذ منه العدل أخذًا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة (هو اسم الحكومة في ذلك الحين) تتم التحقيق الذي بدأتموه، وسنزجه في السجن حتى حين»، قال هذا، فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع، ولم

يمض ربع ساعة إلا والفريق في داره، ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطري من الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه إربًا.

(٥) كذا في الأصل لأنه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦٤٢.

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم في الإقناع

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكري والعوامل التي توثر في نفوسها. بقي علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل، ومن الذي يمكنه استعمالها استعمالًا مفيدًا.

(١) قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الأحياء سواء كان من الحيوان أو من بني الإنسان إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيسًا.

والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد في الغالب إلا أن له بذلك شأنًا كبيرًا تجتمع الأفكار وتتحد حول إرادته، وهو الركن الأول الذي يقوم به نظام وحدة الجماعات ويهيئها لأن تصير طائفة خاصة.

والعادة أن القائد يكون قبل ذلك مقودًا: أعني أنه كان مسحورًا بالفكرة التي صار هو الداعي إليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه إلا ما كان منها، وأن كل ما خالفها وهم وباطل، كما جرى للزعيم (روبسبير) أسكرته أفكار (روسو) فقام يدعو إليها، واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها.

ليس القواد غالبًا من أهل الرأي والحصافة، بل هم من أهل العمل والإقدام، وهم قليلو التبصر. على أنه ليس في قدرتهم أن يكونوا بصراء؛ لأن التأمل يؤدي غالبًا إلى الشك ثم إلى السكون، وهم يخرجون عادة من بين ذوي الأعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية إلى النصف، وأمسوا على شفا جرف الجنون؛ لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلًا، ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا

بالغًا منه الخطل ما بلغ، ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد، بل ذلك يزيدهم تهوسًا وعنادًا؛ حتى إنهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون في الغالب أجرًا على عملهم إلا أن يكونوا من ضحاياه. تزيد شدة اعتقادهم في قوة تأثير أقوالهم، والجموع تصغى دائمًا إلى قول ذي الإرادة القوية الذي يعرف كيف يتسلط عليها. ومتى صار الناس جماعة فقدوا إرادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها.

وجد القواد في الأمم على الدوام، غير أنهم ليسوا جميعًا من أهل الاعتقاد الصادق الذي يصير به المرء رسولًا في قومه، بل هم في الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون إلا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوي المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم، وقد يكون النفوذ الذي ينالونه بهذه الوسائل كبيرًا جدًّا إلا أنه سريع الزوال. أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و(لوثر) و(سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم، فإنهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الأرواح إلا بعد أن سكروا بخمر المذهب الذي اعتقدوه. وبذلك توصلوا إلى توليد تلك القوة الهائلة في النفوس، وهي التصديق الذي يجعل المرء عبدًا لخياله.

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد في النفوس لا فرق بين أن يكون دينيًّا أو سياسيًّا أو اجتماعيًّا، ولا أن يكون محله عملًا أو إنسانًا أو رأيًا. بهذا كان تأثيرهم عظيمًا جدًّا؛ لأن الإيمان أكبر قوة في تصرف الإنسان، وقد صدق الإنجيل في قوله إنه يزحزح الجبال عن مواضعها، فمن كان مؤمنًا زادت قوته عشر أمثالها، والذي قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول إلا الإيمان، وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس على الأخص هم الذين أقاموا الأديان الكبر التي سادت على الدنيا، واختطوا الممالك الشاسعة التي امتدت فوق السطحين.

غير أن الأمثلة التي ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم، فمن السهل على التاريخ حصرهم، وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام إلى العامل الذي يقف في قهوة أطبق الدخان في سمائها ويسترعي أسماع أخوته وهو يلوك صيغًا حفظها من دون أن يدرك معانيها، ولكنه يؤكد أن في العمل بها تحقيق جميع الأماني والآمال.

لا يلبث الإنسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة إلى الجماعة، ذلك أمر واقع في جميع الطبقات أرقاها وأدناها، فأما أفراد طبقة العامة فإن الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكرًا واضحًا في أمر من الأمور، وكلهم كفء لقيادة ذاته، ومرشدهم هو القائد، وربما أمكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف

الدورية التي تصنع لقرائها أفكارًا وتحصل لهم جملًا مصوغة تغنيهم عن التفكير، إلا أن البدل لا يقوم مقام الأصل تمامًا.

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة، على أن استبدادهم هو علة سيادتهم، وقد لوحظ كثيرًا أن فيهم مقدرة على إطاعة طبقات العمال الذين هم أشد عربدة وأصعب مراسًا مع تجرد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه في سلطتهم، فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات.

قواد هذه الأيام صائرون إلى الحلول مكان السلطات الحاكمة، كلما تركت هي الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها وتعسُّف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة أكثر مما أطاعت حكوماتها، وإذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الأثر تصبح الجماعة جمهورًا مفكك الأجزاء، ولا قدرة فيها، فلما اعتصب عمال شركة الأمنيبوس اعتصابهم الأخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته، إنما الحاجة التي يشتد شعور الجماعة بها هي الخضوع لا الحرية.

وقد بلغ منها الظمأ إلى الطاعة أنها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها.

تنقسم القواد إلى فريقين ممتازين، فقواد أولو عزم وإرادة قوية لكنها وقتية، وقواد ذوو إرادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون، والفريق الأول أصحاب حدة ونزق وشجاعة وإقدام، وهم على الأخص نافعون في تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر، وفي جعل الجبان بطلًا مغوارًا ذلك مثل (ناي) و(مورات) زمن الإمبراطورية الأولى، ومثل (غاريبالدي) في عصرنا هذا، فإنه كان رجلًا هجومًا لا ذكاء فيه، لكن ذا عزم ومضاء، وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولي) القديمة على رغم الجيش المنظم الذي كان يحميها.

عزيمة أولئك القواد على قوتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذي دعا إليها، وكثيرًا ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا إلى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم، فتراهم لا يستطيعون التصرف في أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين في تصريف غيرهم، أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم إلا إذا كانوا أنفسهم مقودين، وكان لهم مهيج على الدوام، واستولت عليهم يد أو فكر من الأفكار وساروا في طريق مرسوم من قبل. أما الفريق الثاني من القواد وهم ذوو الإرادة الثابتة، فإن تأثيرهم أعظم بكثير وإن كانوا أقل ظهورًا في الشكل، وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الأعمال الكبيرة

كالقديس (بولص) ومحمد ﷺ و(كريستوف كولومب) و(دولسبس)، وسواء كان قواد هذا الفريق من الأذكياء أو الأغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين، لأن الإرادة الثابتة التي اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شيء، إلا أن الناس لا يدركون دائمًا ما عسى أن يكون من وراء الإرادة القوية المستمرة، فالذي يكون من ورائها هو أنه لا شيء يقف أمامها، حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال.

وأقرب الأمثال على ما تأتي به الإرادة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذي فصل الدينين، وأنجز عملًا قصرت عنه همة أكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام، نعم، لم ينجح بعد ذلك في عمل يضارع هذا العمل، لكن الشيخوخة كانت قد أدركته، وكل شيء ينطفئ أمامها حتى الإرادة.

من أراد بيان ما تأتي به الإرادة وحدها فما عليه إلا أن يذكر العقاب التي ذللت لفتح قناة السويس، وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال في أسطر تسحر الألباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلًا عن صاحبه الذي خلد التاريخ ذكره فقال: «كان — يعني دلسبس — يقص علينا حينًا فحينًا حوادث القناة مرحلة بعد أخرى، فحكى لنا ما لاقى من الصعاب التي ذللها، وكيف جعل المستحيل ممكنًا، وروى المقاومات التي صادفته والتحزبات التي اعترضته واليأس الذي كان قد استولى على قلبه والخيبة التي كان يؤوب بها، وكيف أن ذلك كله لم يكن ليثني عزيمته، ولا ليضعف من إرادته. وكان يذكر إنكلترا وهي تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة، وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوي أشد الجميع معارضة في البدء بالعمل. حتى إنه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش، فسعى فمنع عنهم الماء الفرات. ولا تنس أن ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذي الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء وكلهم مقتنعون، علمًا بأن الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويجددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف.»

إن الكتاب الذي يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الأسماء، لكن تلك الأسماء هي التي كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ.

(٢) وسائل القواد في التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

إذا مست الحاجة إلى قيادة جماعة وحملها على عمل من الأعمال كإحراق قصر أو الاستماتة في الدفاع عن حصن أو معقل، وجب التأثير فيها بخواطر سريعة. والأمثولة أشد ذلك تأثيرًا في نفوسها إلا أنه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر، وأن يكون من يريد تحريكها حائزًا للنفوذ، وسيأتي الكلام فيه.

لكن إذا كان الغرض بث أفكار في عقولها أو معتقدات في نفوسها كالأفكار الاشتراكية العصرية، فالوسائل غير ما تقدم وأخص ما يستعمله القواد منها ثلاث: التوكيد، والتكرار، والعدوى، ولذلك تأثير بطيء، إلا أنه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمنًا طويلًا.

فأما التوكيد فإنه من أهم العوامل لبث الفكر في نفوس الجماعات متى كان بسيطًا خاليًا من التعقل والدليل، وكلما كان التوكيد موجزًا ومجردًا عن كل ما له مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير، هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد، فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسي، وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها.

إلا أن قيمة التوكيد هي بدوام تكراره بالألفاظ عينها ما أمكن ذلك. وأظن أن نابليون هو القائل بأن أهم صيغ البيان التكرار، فإذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخًا تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة.

للتكرار تأثير في عقول المستنيرين وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى. والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر. وهذا هو السر في تأثير الإعلانات العجيب. يقرأ الواحد مائة مرة أن أحسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل إليه من التكرار أنه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهي باعتقاد صحة الخبر، ويقرأ ألف مرة أن دقيق فلان شفى أعاظم القوم من مرض عضال، فيميل إلى التجربة أن أصيب بمثل المرض المذكور، ويقرأ كل يوم في الصحف أن زيدًا من الأنذال وعمرًا من الفضلاء، فينتهي باعتقاد ذلك إلا إذا كان يقرأ دائمًا في جريدة أخرى ما يخالفه، فإنه لا يفل التكرار إلا التكرار.

ومتى كثر تكرار أمر وأجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكري يتلوه ذلك المؤثر العظيم، أي العدوى، كما وقع ذلك في بعض المشروعات المالية الشهيرة التي تمكن أصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم؛ لأن للأفكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى في الجماعات تماثل في قوتها عدوى المكروبات، وذلك أمر طبيعي لوجوده في الحيوانات متى اجتمعت، فالفرس يقبع في مربطه فتفعل فعله الخيل كلها، وتجزع الشاة أو تضطرب في حركتها فتفعل الغنم مثلها، كذلك لحركات الإنسان في الجماعة عدوى سريعة جدًّا، وهذا هو السبب في سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم، حتى إن اختلال القوى العقلية معدٍ وكثير ما هم أطباء المجانين الذين جنوا، وشاهد بعضهم نوعًا من الجنون تنتقل عدواه من الإنسان إلى الحيوان.

ولا يجب في العدوى وجود الأفراد الكثيرين في مكان واحد، بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التي تتحد لأجلها وجهة أفكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لا سيما إذا كانت النفوس مهيأة من قبل بأحد العوامل البعيدة التي مر ذكرها. ذلك ما كان من ثورة سنة ١٨٤٨، فإنها بدأت في باريس وما عتمت أن امتدت إلى قسم كبير من أوروبا، وهزت أركان كثير من الممالك.

قالوا إن لحب التقليد تأثيرًا كبيرًا في الناس، وليس التقليد إلا أثرًا بسيطًا من العدوى، وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة في غير هذا الكتاب، فأكتفي بإيراد ما قلته إذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثًا:

> الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه إلى التقليد، فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته، وهذه الحاجة هي التي تجعل للبدئ (المودة) تأثيرًا كبيرًا، والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك في الأفكار أو الآراء أو الأدبيات أو اللباس، لأن الذي تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان، ولكل عصر أناس قليل عددهم يستحدثون البدء فيقلدهم أبناء عصرهم فيها، وإنما يشترط أن لا يبتعد المبتدع كثيرًا عن المألوف حتى لا يصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع، ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير في قومهم إلا نادرًا لبعد البون بينهما، ومن هنا قل تأثير الأوروبي في الشرقي مع ما للأول من المزايا المدنية، لأن الخلف شديد بين الرجلين.
>
> يتشابه أهل كل عصر في أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد، حتى الذين يخيل أنهم متفاوتون، كالحكماء والعلماء والأدباء، فإنك ترى على أفكارهم

وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك في الحال على أنهم أبناء عصر واحد، ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذي يصبو إليه والعمل الذي اعتاده، والبيئة التي يختلف إليها.[١]

ويبلغ تأثير العدوى إلى حد أنه يتعدى توحيد الأفكار إلى توحيد كيفية التأثر بالحوادث، فالعدوى هي التي تُنفر من الشيء في وقت من الأوقات ثم تُرغِّب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضًا له كما وقع في (تانها وزر).[٢]

والعدوى هي الأصل في انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين، ففي الخمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى، وقليلا ما تولدت أفكار الجماعات في كل عصر من غير هذا الطريق. وقد أصاب (رنان)[٣] إذ شبه مؤسسي النصرانية الأولين «بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من خمارة إلى أخرى»، وقال فولتير[٤] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية: «إنها استمرت لا يدين بها إلا أخس الناس مدة مائة عام.»

ويؤخذ من الأمثلة المتقدمة أن العدوى في مثل تلك الأحوال تبتدئ في الطبقات النازلة ثم تصعد منها إلى الطبقات الرفيعة. ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة في مذهب الاشتراكيين، لأنه بدأ يمتد بين الذين يخال أنهم سيكونون أول ضحاياه، لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية.

هذا هو السبب في أن الفكر إذا انتشر بين طبقات العامة لا بد له من الانتشار أيضًا بين طبقات الأمة إلى أرفعها وإن كان فاسدًا بعيدًا عن الصواب. وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا إلى الطبقات العليا، وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية، لأن الأفكار العامة لا تأتيهم دائمًا إلا من أفكار عالية تختلف عنها أثرها في البيئة التي ولدت فيها، فيتناولها قائدو الجماعة بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد في تغييرها، ثم يبثونها في الجماعات، وهذه تضاعف التغيير، ثم تصير حقيقة عند العامة، وبعد ذلك تصعد إلى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية، وعلى هذا يكون العقل هو الذي يحكم الدنيا، ولكن من بعد باعد، فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الأفكار وتصير ترابًا ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الأفكار التي أوجدوها.

(٣) النفوذ

مما يساعد كثيرًا على قوة تأثير الأفكار التي بثت في الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونُها تنتهي باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ.

للنفوذ قوة لا تقف أمامها قوة أخرى، وكل سلطة سادت في الوجود سواء كانت سلطة الأفكار أو الرجال، فهو السبب في قيامها وسيادتها. والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة؛ ولذلك لم يكن من السهل تعريفها.

وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالإعجاب أو الرهبة، وربما كان الاثنان أصلًا له في أحوال كثيرة، إلا أنه قد يوجد بدونهما مثل نفوذ الذين ماتوا، فإنه لا محل للخوف منهم، ودليل ذلك أن أكثر من نشعر بنفوذه فينا هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار، ولم نعد نخاف منهم مثل الإسكندر وقيصر ومحمد ﷺ وبوذا. كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير في النفوس، وإن كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون في معابد الهند التي تحت سطح الأرض.

يمكن أن يقال إن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولي بها على العقول، وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشًا واحترامًا، ولا يمكن تفسير الشعور الذي يحدث منه كما هو الشأن في كل شعور، إلا أنه لا بد أن يكون من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس الشخص النائم نومًا مغناطيسيًّا. والنفوذ أعظم مقوم لكل سيادة في العالم إذ لولا هو ما ساد الآلهة والملوك والنساء.

ثم إن النفوذ أنواع يمكن حصرها في قسمين: النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي، فالأول هو الذي يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته، وقد يكون منفصلًا عن النفوذ الشخصي، وأما النفوذ الشخصي فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها إليه، وقد يكون وحده.

وأكثر النوعين شيوعًا هو النفوذ المكتسب أو العرضي، فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزًا أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الألقاب، وإن لم يكن له قيمة من نفسه: فللجندي في لباسه وللقاضي في زيه الرسمي نفوذ ما ارتديَا لباسهما، ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[٥] ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم، ولا يزال الاشتراكي كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشيء من الاضطراب إذا رأى أميرًا أو عظيمًا من الشرفاء، ويكفي أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء.

والنفوذ الذي أشرنا إليه خاص بالإنسان، وبجانبه يوجد النفوذ الذي يكون للأفكار أو الأدبيات أو الفنيات وغير ذلك، وهو في غالب الأحوال ناشئ من التكرار، وما التاريخ وبالأخص تاريخ الآداب والفنون إلا تكرار رأي سبق ولم يعارضه أحد، فيؤول الأمر إلى أن كل واحد يكرر ما قرأ في المدرسة، ووجدت بذلك أسماء وأشياء لا يجرأ أحد على الحديث فيها، فمما لا شبهة فيه أن مطالعة «هومير» تورث قراء هذا الزمان مللًا شديدًا إلا أنه لا يجرأ أحد على القول به، و«البارتينون» أصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الأنقاض ولا فائدة منها إلا أن نفوذه لا يزال قويًّا، حتى إنهم لا يبصرونه كما هو الآن، بل كما كان في القدم محفوفًا بأبهته وفخامته، فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الإنسان يرى الشيء على حقيقته وأن يعطل فيه ملكة النقد والتمييز.

تحتاج الجماعات دائمًا والأفراد غالبًا إلى آراء حاضرة في جميع المباحث، وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ، بل مرجعه ما لها من النفوذ.

ننتقل الآن إلى النفوذ الشخصي وهو يختلف مع النفوذ المكتسب؛ لأنه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها إليهم كالمغناطيس، وإن ساووهم في المنزلة بين أمتهم، ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون إليهم مشاعرهم، وأولئك يطيعون أمرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مُروِّضه وإن كان في استطاعته افتراسه بالسهولة لو أراد.

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى ومحمد ﷺ وجان دارك ونابليون، وهو السبب في تمكنهم، فإنما تتسلط الآلهة والأبطال والمذاهب تسلطًا لا دخول للمناظرة فيه، بل ذلك السلطان يزول إذا بحث فيه.

كان أولئك العظماء ذوي قوة أخاذة قبل اشتهارهم، وتلك القوة هي السبب في شهرتهم، فلما بلغ نابليون مثلًا ذروة المعالي كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه، إلا أنه كان له شيء منه يوم لم يكن له من السلطة ولم يكن معروفًا لدى أحد، فلما ترقى إلى رتبة لواء (جنرال)، وكان لا يزال مجهولًا عهد إليه من كان مستصنعًا له بقيادة الجيش الفرنساوي المحارب في بلاد إيتاليا، فوجد نفسه بين لواءات عتاة أشداء، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الإغلاظ له في المقابلة لاعتبارهم إياه دخيلًا بينهم، ولكنه ما عتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا إشارة ولا وعيد، بل بأول نظرة من ذلك الذي قدر له أن يكون من العظماء. وإليك كيف كان اللقاء:

«جاء قواد الفرق إلى المعسكر العام وقلوبهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة، وكان بينهم اللواء (أوجيرو) وهو جندي عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده، فخور بشجاعته، وكان ممتعضًا ينساب بالشتائم على نابليون من يوم أن سمع به وعرف أوصافه، فسماه صنيعة (باراس)، ولواء الشارع ونعته بالدب؛ لأنه كان يحب التفكر منعزلًا وذا سمنة صغيرة ومشهورًا بالرياضي الصغير وبالخيال، فلما اكتملوا أدخلوهم غرفة الاستقبال، فأبطأ نابليون في الخروج إليهم، وبعد زمن بان لهم متقلدًا سيفه، ثم اتشح بردائه وأخبرهم بنياته، وأنفذ إليهم أوامره وأشار إليهم بالانصراف. أما (أوجيرو) فقد تولاه الصمت ولم يرجع إلى نفسه إلا بعد أن خرج، فجعل يسب كما كان يشتم من قبل، ولكنه أقر مع زميله (مسينا) أن هذا القائد الصغير أوقع الرعب في قلبه وأنه حائر في التأثير الذي أخذ به أول ما وقع بصره عليه.»

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما أوتي من المجد، وأصبح في أعين الجماعات مساويًا للآلهة عند المتعبدين. اتفق أن القائد (فاندام)، وكان جنديًّا ثوريًّا خشن الطباع جاف الأخلاق أكثر من زميله (أوجيرو)، قصد ذات يوم تويلري حيث نابليون، وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (أورنانو)، فقال الأول للثاني وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون: «أيها الصديق إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيرًا لست أدرك كُنْهَهُ حتى إنك لتراني مع كوني لا أخاف الله ولا الشيطان إذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير، ويخيل إليَّ أنه قادر على إدخالي في سَمِّ الخياط وإحراقي بالنار»، وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير في جميع من يقترب منه.[٦]

هذا التأثير الذي فاق حد الإعجاب يبين لنا السبب في الاستقبال العظيم الذي قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة «ألب»، وكيف أنه افتتح ثانية بلا إمهال قلوب الأمة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه مُعِين وأمامه جيوش تلك الأمة المنظمة، وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها. حلف القواد الذين أرسلوا للقبض عليه أن يفعلوا، فلم تكن إلا نظرة منه أخضعتهم وهم صامتون. وكتب القائد (ولسلي) في ذلك يقول: نزل نابليون من السفينة إلى بر البلاد الفرنساوية وليس معه إلا قليل من رجاله الخصوصيين، كأنه فارٌّ من جزيرة ألب الصغيرة التي كانت كل ما يقدر أن يتسلط عليه، فما لبث بضعة أسابيع حتى قلب نظام الإدارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعي، وذلك من غير أن يريق قطرة دم لواحد من أهلها، بل بمحض نفوذه الشخصي مما لم يسبق له مثيل في الدنيا، وأعجب منه ما كان له من التأثير في حلفائه أثناء هذه

الحركة الطويلة التي ختمت فيها حياته العمومية، فإنه كان يلجئهم إلى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير.

مات نابليون ولكن نفوذه بقي حيًّا أو صار ينمو، وتأثيره هذا هو الذي حمل الناس على الاعتراف بابن أخته إمبراطورًا، وكان من المستضعفين، وها نحن أولاء اليوم نشهد ظهور أقاصيصه من جديد، وذلك برهان على أن خياله لا يزال قويًّا في النفوس. أسِئْ معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم ألوفًا ألوفًا، وانزل على البلاد غارة وغارة، إنك في حِل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ، وكان فيك من الذكاء ما تحمي به ذاك النفوذ.

رب قائل ولكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ بأكبر مثال، عزيز المثال، والحق أني اخترته عمدًا لأبين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الكبر، وقامت المذاهب العظام، وأنشئت الممالك الواسعة، إذ لولا تأثير النفوذ في الجماعات ما كنا لذلك مدركين.

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصي والفخار العسكري، والرهبة الدينية دون سواها، بل يجوز أن يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير، ويكون مع ذلك شديدًا، ولنا من القرن الحاضر أمثلة كثيرة أكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلًا بعد جيل، وهو الذي نراه في تاريخ ذلك الرجل العظيم الذي غير وجه البسيط، كما غير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم أن فصل بين القارتين، وقد كان السبب في نجاحه ما أوتيه من قوة الإرادة. ولا تنس تأثيره الذي كان ينفذه إلى نفوس مخالطيه، كان الناس كلهم أضدادًا له، فإذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين، وإذا خاطبهم أسكرتهم عذوبة القول فأصبحوا بعد النفور أحبة صادقين. ولقد انفرد الإنكليز بالشدة في معارضته، فلما ظهر في بلادهم صاروا له أعوانًا مخلصين، ثم مر بمدينة (سوثمبتون)، فدقوا النواقيس فرحًا بمقدمه وهم يفكرون الآن في إقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين. قامت في وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال، فقهر الكل وسخره، فلما فاز أصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام، وأراد أن يبدأ عملًا جديدًا، ففكر في الذهاب من السويس إلى باناما وشرع في العمل بالوسائل نفسها، لكن الشيخوخة كانت قد أقبلت، واليقين لا يزحزح الجبال إلا إذا لم تتصل بذروتها السماء. هنالك استعصى الجبل، وحم القضاء، ونزلت الكارثة، فهدمت صرح مجد أقامه ذلك البطل العظيم، إن في حياته لمرشدًا كيف يحيا النفوذ وكيف يموت، بلغ الرجل في المجد أرفع منزلة رقيها كبار الرجال، وأنزله قضاة أمته إلى أخس دركات المجرمين، فلما مات مرت جنازته كأنها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون، وإنما ملوك الدول الأجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فأعربوا عن إعجابهم به كما يقع لأعاظم الرجال.[٧]

الأمثلة التي قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ إليه، فإذا أردت أن تعرف ماهية النفوذ مفصلًا وجب أن تضع تلك الأمثلة في أعلى السلم، ثم تتدرج من مُنشِئِي الديانات ومقيمي الممالك حتى تصل إلى الرجل البسيط الذي يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام.

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها في جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب، وترى النفوذ أول مؤثر في تحصيل الاعتقاد. فالناس يقلدون ذا النفوذ عمدًا أو بمحض الفطرة سواء كان إنسانًا أو رأيًا أو شيئًا آخر. ويتولد في أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحسون بها ويترجمون عما به يشعرون ويكون التقليد في الغالب فطريًّا، لذلك يبلغ حد الكمال والاتقان. ومن ذلك أن مصوري هذه الأيام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الألوان الباهتة والأزياء العابسة التي تمثل أناسًا من أهل الفطرة الأولى، وهم لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل، ويظنون أنهم هم الذين أوجدوه لأنفسهم، وفاتهم أنه صنع أحد كبار المصورين، ولولا ذلك لاستمروا على النظر إلى تلك الصور من جهة سذاجتها وانحطاط درجتها في فن التصوير، ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكثرون في مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مع أنهم لا يرون هذا اللون منتشرًا في الطبيعة أكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عامًا. والواقع أنهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء أساتذة الفن كانت له في ذلك التلوين شهرة فائقة وإن كان هذا الاختراع مما يعد غريبًا. وأمثال المصورين كثيرة في جميع عناصر المدنية.

ويؤخذ مما تقدم أن النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح، فمتى نجح الآمر في أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له، وكذلك الفكر إذا تمكن من العقول، والدليل على أن النجاح أقوى عامل في تحصيل النفوذ أن هذا يذهب بذهاب ذاك، فالناس يهللون في المساء لبطل كلل بالنصر ويسخرون منه في الصباح إذا قَلب له الزمان ظَهْر المجنِّ. وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأي في صاحبه إذا تولته الخيبة، فتراه الجماعة من أندادها، فتميل إلى الانتقام منه جزاء ذلها أمام سلطانه الذي لم تعد تعترف له بشيء منه. هكذا كان نفوذ روبسبير شديدًا يوم كان يقطع رءوس زملائه ورءوس الكثير من معاصريه، فلما ضاعت منه بعض الأصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته وشيَّعته الجماعة إلى المشنقة وهي تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالأمس ضحاياه. ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الأصنام.

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة، وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه، لكن ذلك لا يتم بالتدريج، وهذه الوسيلة هي أضمن الوسائل لإضاعته، وما من إله أو إنسان دام له

النفوذ زمنًا طويلًا إلا كان لا يحتمل المناظرة فيه، إنما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها.

هوامش

(١) راجع كتاب الإنسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص١١٦.

(٢) رواية وضعها وجنر، نَفَر الناس منها أولًا ثم أُعجبوا بها.

(٣) حكيم مشهور بفرنسا في أواخر القرن الماضي وكان قسيسًا في مبدأ أمره، وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح).

(٤) أشهر كُتاب الفرنساويين في القرن الثامن عشر.

(٥) للألقاب والأوسمة والشارات تأثير في الجماعات في كل بلد حتى التي بلغ فيها استقلال الفرد وحريته أرفع الدرجات. وإني أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانًا لنفوذ بعض العظماء في إنكلتره قال: «لاحظت مرارًا أن اجتماع أحد الحائزين لقب (بير) مع أكبرهم عقلًا وتمييزًا يحدث في نفوس هؤلاء شعورًا يكاد يكون سكرًا من نوع خاص، فمتى كان له من اليسار ما يرتكز عليه لقبه، فهم يحيونه قبل أن يروه، فإذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين، تحمر وجوههم سرورًا بمقدمه، فإذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين، ويظهر في العينين بريق غير معهود. اللوردية في دمهم كالرقص عند الأندلسي والموسيقى عند الألماني والثورة عند الفرنساوي، شهوتهم في الخيل وشكسبير أقل من شهوتهم في الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر. كتاب تلك الرتبة عندهم في رواج وهو كالتوراة موجود عند كل إنسان.

(٦) وكان هو يعلم ذلك من نفسه، ويعلم أنه يزيد فيه بمعاملته أكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل، على أنه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين أزعجوا أوروبا، وروايات عصره مشحونة بالأمثلة في هذا الموضوع، فمنها أنه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية، فارتعد المشتوم، فاقترب نابليون وقال له: «أثاب إليك رشدك أيها الأبله الكبير.» وكان بونيو واقفًا على قدميه كالمارد فانحنى مليًّا، فمد الصغير يده وقبض على أذن الكبير. قال (بونيو): «علامة رضا تسكر من وجهت إليه وصفاء سيد يتلطف.» هذه الحوادث وأمثالها تدل على ما يفعله النفوذ في النفوس إذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصَّغار،

وتبين لدرجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله، فهو الذي كان يقول عنهم إنهم لا يصلحون إلا حشوًا للمدافع.

(٧) لما مات دولسبس نشرت جريدة «نوي فراي بريسه» النمساوية بمدينة «فينا» مقالة في مآل ذلك الرجل، جاءت فيها بخواطر جديرة بالإمعان؛ ولذلك ننقلها للقراء، قالت: «لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (هو الذي اكتشف أمريكا) الذي يثير الحزن والأسى بعد الحكم على «فرديناند دولسبس»؛ لأنه إذا كان فرديناند دولسبس نصابًا، فكل أمل من الآمال الكبار جرم عظيم، ولو كان دولسبس من أهل العصور الأولى لتوجه أهل زمانه بأبهى تاج من المجد والفخار، ولسقوه الرحيق في حجرة آلهتهم التي كانوا يعبدون؛ لأنه غيَّر وجه الأرض، وأتى من الأعمال ما يدعو إلى تحسين الخلق في الوجود.»

«خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه في التاريخ بحكمه على دولسبس؛ لأن الأمم لا تنفك تسأل عن اسم الذي اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره، وألبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجدًا وفخارًا لمعاصريه.»

«ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين في مصالحهم، فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد، إلا أن الأمم في حاجة إلى رجال ذوي عزم وإقدام يثقون بأنفسهم ويقتحمون كل صعب، وهم لذواتهم غير ملتفتين، إلا أنه لا حذر لنابغ إذ ولو كان حذرًا ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذي هو فيه.»

ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل، السويس وبناما. وهنا يحق للنفس أن تغضب من آداب الفوز والانتصار. فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والأمراء تهديه التهاني، واليوم لما أدركه الفشل أمام صخور (كورديليير) كان نصابًا حقيرًا. إن هذه إلا حرب تقوم بين الطبقات في الأمم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقامًا ممن يصبو إلى المجد والمعالي. ولقد يحار مشرعو هذي العصور أمام تلك الأفكار العالية التي يولدها النبغاء، والعامة في ذلك أقل فهمًا وأدنى إدراكًا. لكن من السهل على الأفوكاتو العمومي إقامة البرهان على أن ستانلي من القتلة وأن دولسبس من الخادعين:

والناس من يلق خيرًا قائلون له   ما يشتهي ولام المخطئ الهبل

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

(١) في المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أي الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام، فمن الأولى ما هو ثابت أو لا يتغير إلا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذي بيننا وبين الطوفان، ومنها ما هو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربي، وقد يبلغ التغيير درجة تختفي فيها الخواص الأصلية على غير المتأمل.

وكذلك الحال في الخواص الأدبية، فمن أخلاق الشعب ما هو ثابت لا يغيره كرور الأيام، ومنها ما هو متقلب يتغير. ومن ينعم النظر في معتقدات الأمم وأفكارها يرى دائمًا في أخلاقها أصلًا ثابتًا ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر.

وعليه تنقسم معتقدات الجماعات إلى قسمين: الأول المعتقدات الدائمة التي تعمر عدة قرون، وإليها ترجع مدنية الأمة كلها كالأفكار التي سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وأفكار الإصلاح (البروتستانتية) وكالجنسية والأفكار الديمقراطية والاجتماعية في أيامنا. والقسم الثاني يشمل الأفكار الوقتية المتغيرة، وهي مشتقة في الغالب من الأفكار العامة تظهر وتغيب في الجيل الواحد كالنظريات التي تسترشد بها الفنون والأدب في أوقات معلومة، ومذهب حرية الكتابة (الإنشاء)[١] ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية ... وهكذا. وتلك الأفكار كلها سطحية سريعة التغير، كالبدئ (المودة) فمثلها كمثل الأمواج الصغيرة التي تظهر وتختفي من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة.

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدًّا، وقيامها وسقوطها في كل أمة ذات تاريخ يمثلان أعظم دور في حياتها، ولا قوام للمدنية بدونها.

ومن السهل جدًّا إيجاد فكر وقتي في عقول الجماعات، لكن من الصعب جدًّا تقرير معتقد دائم في نفوسها، كما أنه من الصعب جدًّا هدم اعتقاد تمكن منها، ولا سبيل إلى التغيير غالبًا إلا بالثورات العنيفة، بل إن الثورة لا تؤدي إلى ذلك إلا إذا اضمحل قبلها أثر المعتقد في النفوس، فهي تصلح لكسح تلك البقية التي تكاد تكون في حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الإقلاع عنها بالمرة، فالثورة التي تقبل عبارة عن معتقد يدبر.

ومن السهل تجديد اليوم الذي يندكُّ فيه أحد المعتقدات الكبرى، ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث في قيمة هذا الاعتقاد؛ لأن كل اعتقاد عام يكاد يكون أمرًا فرضيًّا، فهو لا يحتمل البقاء إلا بشرط عدم البحث فيه.

غير أن النظامات التي أُسست على اعتقاد عام تستمر حافِظةً لقوَّتها ولا تتحلل إلا ببطء، وإن تزعزع ذلك الاعتقاد، فإذا تم له الهدم تساقط ما بني عليه.

ومما قضت به سُنة الوجود حتى الآن أن كل أمة أصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لا بد لها عاجلًا من تغيير جميع أركان حضارتها، فهي تُغير وتبدل فيها حتى تهتدي إلى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش في فوضى حتى تعثر عليه، فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة التي لا بد منها، وهي التي ترسم للأفكار طريقها الذي تسير فيه، وهي التي توحي بالإيمان وتفرض الواجبات.

أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة، وفطنت إلى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها. عَبَد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين، فسادوا على الدنيا أجمع، فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما، واستمر المتبربرون الذين خرَّبوا ملكها على همجيتهم حتى إذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وُجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى.

وعليه تعذر الأمم في دفاعها المستميت عن معتقداتها، إذ الحقيقة أن هذا التعصب هو أرقى الفضائل في حياة الأمم وإن كان مذمومًا جدًّا من الجهة الفلسفية.

ما أحرق أهل القرون الوسطى الألوفَ من الناس إلا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لإدخال معتقد عام جديد في النفوس. وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والأسى ملء قلوبهم إلا لأنهم لم ينالوا قسطًا من العذاب لأجل تلك المعتقدات، وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة إلا للدفاع عنها، وما ماتت الملايين في ساحة الوغى إلا بسببها، وكذلك يكون في مستقبل الأيام.

من الصعب غرس معتقد جديد، لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنًا طويلًا، وكيفما كان خطأً من الجهة الفلسفية، فإنه يتسلط على أكبر ذوي الألباب، بدليل أن الأمم الأوروباوية دانت لأقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنًا، والمتأمل في تلك الأقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج،[2] كأقاصيص (مولوخ)[3] هكذا بقي العالم قرونًا وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بأن إلهًا ذاق ابنه عذاب الهون انتقامًا ممن عصاه مِن خلقه، ولم يجل بخاطر أعظم الرجال عقلًا وإدراكًا مثل (غاليله) و(نيوتن) و(لايبنيتز)، أنه يجوز النظر في حقيقة هذه الأفكار، ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها منفوس، ولكنه يبرهن أيضًا على أن العقل محدود بحدود مخجلة.

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها. هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها، فترى أهل العزائم لا يفكرون إلا في تحقيقها، وواضعي القوانين إلا في الأخذ بها، والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب إلا في تمثيلها على صور شتى.

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية، إلا أنها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها، فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الأوروبيين في القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد، طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها.

من هذا يتبين أن الفضل للعقائد العامة في إحاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين، والذي يهدي الناس في سيرهم إنما هي الأفكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد، فهي الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها، وكيفما سمت مداركنا فإنا لا نفكر في الخلاص منها، إذ الاستبداد الحقيقي هو الذي يدخل على النفوس من طريق الغرائز؛ لأنه هو الذي لا يتمكن المرء من محاربته، فلقد كان (تيبير) و(جنكيزخان) و(نابليون) جبارين مستبدين، ولكن استئثار «موسى» و«بوذا» و«عيسى» و«محمد» ﷺ و«لوتر» وهم في القبور أشد وأبقى. إن مكيدة قد تبيد سطوة الجبار، ولكن ماذا ينفع الكيد في عقيدة استقرت في النفوس، قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحي وكانت الجماعات في ظواهر الأمر من جانب الأولى، واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الأندلسيون، والثورة هي التي دارت عليها الدائرة، إنما الجبابرة الذين سادوا في البشر هم خيال الأموات أو الأوهام التي أوجدتها الأمم لنفسها.

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعًا من استظهارها، وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شيء من الهزء الخفي. وإذا كانت مذاهب الاشتراكيين في العصر الحاضر واضحة الضعف، فليس ضعفها هذا هو الذي يكون سببًا في عدم استيلائها على نفوس الجماعات، وإنما السبب في انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجعٌ إلى أن السعادة التي وعدت بها الديانات لا تتحقق إلا في الدار الباقية؛ فلم يكن لأحد أن يماري في تحقيقها. وأما السعادة التي وعد بها مذهب الاشتراكيين، فإنها يجب أن تتحقق في الحياة الدنيا، ومتى شرع في ذلك بان أن الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة، وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة إن تم لها الظفر إلا إلى اليوم الذي يبدأ فيه بتحقيقها، وذلك هو السبب في أن هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الأديان التي سبقته، ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ.

(٢) فيما للجماعات من الأفكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التي شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الأفكار والآراء التي تتجدد وتزول دائمًا، فمنها ما يدوم يومًا واحدًا، وأهمها لا يدوم أكثر من الجيل الذي نشأ فيه. وقد قدمنا أن التغيير الذي يطرأ على هذه الأفكار صوري أكثر مما هو حقيقي في الغالب، وأنها مصبوغة على الدوام بصبغة الشعب الذي توجد فيه، ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسي، فأوضحنا أن أشد المذاهب خلفًا من ملوكيين وجمهوريين وإمبراطوريين واشتراكيين، وهكذا يشتركون فيما يرمي جميعهم إليه، وأن هذا المرمى راجع إلى طبيعة شعبنا النفسية أو الأدبية. واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظامات، وأنها عند أمم أخرى ودلالتها على شيء آخر، وبأن وضع الأسماء للأفكار وإلباس الشيء ثوبًا يريه في صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشيء. كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام إلى جمهوريتهم، فنقلوا إليهم شرائعهم وقضبانهم[٤] وأرديتهم، واجتهدوا في تقليدهم في نظاماتهم وأحوالهم، ومع هذا لم يصيروا رومانيين لأنهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية. ووظيفة الحكيم هي استخلاص ما بقي من العقائد الأصلية وسط التقلبات الصورية، وأن يميز في معمعة الأفكار المتغيرة ما يرجع منها إلى روح الشعب وعقائده العامة.

وإذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفي جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيرًا عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء، والظاهر أن التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ

السياسة أو الدين أو الفنون أو الأدب، لأنا إذا نظرنا في تاريخنا إلى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ — أعني ثلاثين سنة، وهو عمر جيل واحد — ورأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية ثم إمبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت، هذا في السياسة. وأما في الدين فإنها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالألوهية، ثم رجعت إلى الكثلكة الضيقة إلى حد التغالي، ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها، بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا، والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك، وأنكروا الله والسلطان أمسوا خدامًا خاضعين لنابليون، وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم في احتفالات الملك لويز الثامن عشر.

وما أكثر الانقلابات التي طرأت على أفكار الجماعات في السبعين سنة التالية، فقد صار الإنكليز حلفاء أمة الفرنساويين في عهد خليفة نابليون، وكانوا في أول القرن أعداء ماكرين، وأغرنا مرتين على بلاد الروس، وكم خفقت قلوبهم فرحًا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء.

وأسرع من ذلك تقلب الأفكار في الأدب والفنون والفلسفة، فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة، وكنا طبيعيين وكنا صوفيين، وكنا غير ذلك؛ كل هذا ظهر واختفى، وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور في المساء، فإذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه.

وإذا دققنا البحث في هذه التقلبات التي يخال أنها حقيقية متأصلة في النفس رأينا أن ما كان منها مخالفًا للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب، فهو زائل لا يدوم إلا يسيرًا، ولا تلبث المياه أن تعود إلى مجاريها، فمن المعلوم أنه يستحيل دوام الأفكار التي لا رابطة بينها هي والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب؛ لأنها مُعرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق تتغير بأقل تغيير في البيئة التي وجدت فيها. ومما يدل أيضًا على عدم بقائها أنها تولدت من طريق الإلقاء والعدوى، فهي تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذي يتكون أكداسًا على شاطئ البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده ... وهكذا.

ولقد كثرت في أيامنا هذه أفكار الجماعات التي لا بقاء لها، ولذلك ثلاثة أسباب:

الأول: أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئًا فشيئًا، فلم تعد تؤثر في الأفكار العرضية تأثيرًا ينظمها ويهديها، وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها هي والماضي، ولا يرجى بقاؤها في المستقبل.

السبب الثاني: أن قوة الجموع تزداد شيئًا فشيئًا، والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك، وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب في أفكارها، فالنتيجة أنها أصبحت أكثر حرية في إظهار تلك الأفكار المتقلبة.

والسبب الثالث: هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الأفكار المتناقضة التي تعرضها على الجماعات. فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها، وما من فكر ينتشر تمامًا وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال، فهي تموت قبل أن تنتشر انتشارًا يثبتها ويجعلها معتقدًا عامًّا.

من تلك الأسباب تولدت ظاهرة جديدة في تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر، وهي ضعف الحكومات عن قيادة الرأي العام.

كان زمام الرأي في الزمن السابق ما هو في يد الحكومات وبعض ذوي النفوذ من الكتاب، وعدد مخصوص من الجرائد: فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم، وأما الجرائد فإن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأي، وأما السياسيون فإنهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه، وقد أخذتهم منه رهبة تكاد أحيانًا تبلغ حد الذعر والانذهال، فهم لا يثبتون في أي طريق يسلكون.

نتج من هذا أن رأي الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة، وقد وصل الآن إلى إلجاء الأمم لعقد المحالفات، كما وقع أخيرًا في المحالفة الروسية التي كانت حركة الرأي العام مصدرها الوحيد. ومن أعجب ما يشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الأحاديث[٥] ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراهم في أمر من الأمور إلى حكم الجمهور. قالوا فيما مضى إن السياسة ليست من الأمور التي تسيرها المشاعر، وإنا نشك في أنه يمكن القول بذلك الآن بعدما بان أن نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذي قبله، والجماعات لا تعرف العقل ولا تندفع إلا بالمشاعر.

وأما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأي العام كالحكومات، اضطرت إلى التسليم أمام سلطان الجماعات. نعم للجرائد أثر شديد في الناس، لكن ذلك سببه أنها صارت مرآة لآرائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر. أصبحت الجرائد رسل أخبار، فلم تعد قادرة على نشر رأي أو تقرير مذهب، بل هي تسير خلف أهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم، وإلا خسرت قراءها، ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التي كان لها المقام الأول والتأثير القوي مثل (لوكونستيتو سيونيل) و(الديبا) و(السييكل)، وهي التي كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحي المنزل من السماء، قد احتجبت أو صارت

صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والإعلانات التجارية. لا توجد اليوم جريدة تسمح ماليتُها للمحررين بإبداء آرائهم الذاتية، على أنها إن وُجدت ما كان لتلك الآراء والأفكار قيمة عند القراء؛ لأنهم إنما يطلبون خبرًا يقرأونه أو نكتة يتفكهون بها، وصاروا في ريب من كل رأي ونصيحة توجه إليهم، إذ يظنون أن وراءها طمعًا في ربح أو سعيًا لمنفعة خاصة. بل إن أهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثَّل في المراسح، فإن النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر إليهم نفعًا. أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو إبداء الآراء الشخصية، فجعلت تقلل منه في عالم الأدب حتى بطل واستعاضته بذِكر اسم الكتاب الجديد متبوعًا بسطرين أو ثلاثة للإعلان عنه، والحث على اقتنائه، وربما آل الأمر إلى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التي تشخص في الملاهي.

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبُّع حركات الرأي العام، فالذي يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى، إنما هو أثر ذلك في الناس، وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات، فما أسرعها في السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له.

ينتج عن فقدان ضابط للرأي واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشيء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهورًا تامًّا. وأما المذاهب كالاشتراكية، فإن حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع، أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم في شك من كل شيء أو هم كثيرو التقلب.

التطور الذي تم من هذه الجهة في الخمس والعشرين سنة الماضية واضح. فقبل ذلك والعهد قريب كان للأفكار وجهة عامة؛ لأنها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية، وكان للملوكي بمقتضى كونه ملوكيًّا أفكار وآراء ثابتة في التاريخ وفي العلوم، وكان للجمهوري بمقتضى كونه جمهوريًّا أفكار وآراء تناقض الأولى على خط مستقيم، الأول يعتقد أن الرجل ليس متولدًا من القرد والثاني يعتقد الضد تمامًا. الأول يرى من الواجب عليه إذا تكلم في الثورة أن يغضب وينفر والثاني أن يعجب ويبالغ في التعظيم والتبجيل. وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه إلا مقرونًا بالخشوع والإجلال مثل (روبسبيير) و(مارات)، أو متبوعًا بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و(أوغسطس) و(نابليون)، وعم هذا المذهب السخيف في التاريخ حتى تفشى في مدرسة (السربون) نفسها.[٦]

ليس لفكر ولا لرأي في هذه الأيام وقع في النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها، ولا يجعل تأثيرًا للبقية، والذي ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالأمور شيئًا فشيئًا.

على أنه ينبغي أن لا نحزن من انتشار الأفكار، نعم لا شبهة في أنه منذر بانحطاط الأمة، لأنه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات، وعلى الإطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم، أكبر جدًّا من تأثير أهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشيء. لكن لا يذهب عنا أنه إذا تمكن رأي واحد من النفوس والجماعات على ما هي عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهله أن يصيروا مستبدين استبدادًا يذل له كل ما في الوجود، ويغلق باب حرية الأفكار وحرية النقد زمنًا طويلًا. لا يقال إن من سلاطين الجماعات من كان ندي الخلق لين الملمس لأن طبعها قلب، فهي هوائية سريعة الغضب والانفعال، فإذا قُدر لحضارة أن تقع في يدها أصبحت هدفًا للطوارئ والمصادفات، وقصر بذلك أجلها وإن كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط، فإنما يكون ذلك من شدة تقلبات آراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة.

هوامش

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائمًا بما جرى عليه السلف في فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة.

(٢) أقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر، أما عملًا فقد أوجدت تلك الأقاصيص مدنية جديدة صرفة، وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنًا هاتيك الجنان دانية القطوف، وأحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن.

(٣) إله عبده الكلدانيون وأهل قرطاجة، وكانوا يحرقون الأطفال قربانًا له، ويعتقدون أنه يمد ذراعيه دائمًا ليتلقاها (م).

(٤) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين.

(٥) يشير إلى ما ألفه الناس في هذه الأيام من محادثة الملوك والعظماء ونشر أحاديثهم في الكتب والصحف.

(٦) يوجد في هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين في مدارسنا غاية في الغرابة، وهي تدل على ضعف ملكة النقد الناشئ عن طريقة التربية في المدارس، وإني أنقل للقراء الأسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لأحد مدرسي التاريخ في

مدرسة (السربون) المذكورة قال: «إن الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر أعمال تاريخ الأمة الفرنساوية، بل تاريخ أوروبا كلها، لأنه كان فاتحة دور جديد في حياة الأمم.» وقال عن (روبسبيير) إن استبداده بالناس كان استبداد رأي ويقين، ونفوذ أدبي، وكان أشبه بسلطة روحية عليا في يد رجل من الأخيار» (صفحة ٩١، ٢٢٠).

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغي أن نبين الصفات الخاصة التي تنفرد بها المجامع عن بعضها إذا صارت جماعات بتأثير الأسباب المؤدية إلى ذلك.

ولنبدأ بقول موجز في تقسيم الجماعات.

فأولها الجمع مطلقًا وأدنى مراتبه ما كان مؤلفًا من أفراد ليسوا من شعب واحد ولا رابطة بينهم إلا إرادة رئيسهم بقدر ما له من المنزلة فيهم. ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفي الأصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة.

ويليها الجموع التي احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت بأن صارت شعبًا واحدًا، ولهذه الجموع في بعض الأحيان الصفات الخاصة بالجماعات، إلا أن هذه الصفات الخاصة تكون دائمًا متأثرة بصفات الشعب العامة.

فإذا اجتمعت في هذه المجامع بقسميها العوامل التي ذكرناها في هذا الكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية، وهذه الجماعات تنقسم إلى الأقسام الآتية:

أولًا: الجماعات المختلفة العناصر وفيها:

(١) الجماعات التي لا اسم لها «كجماعات الطريق العام.»
(٢) الجماعات التي لها اسم خاص «كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا.»

ثانيًا: الجماعات المؤتلفة العناصر وفيها:

(١) الأفناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا).
(٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا).
(٣) الطبقات (كجموع الأواسط وجموع أهل الريف وهكذا).

وإليك قولًا موجزًا في بيان مميزات كل نوع من هذه الأنواع:

(١) القسم الأول: الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هي التي شرحنا صفاتها في هذا الكتاب، وهي تتألف من أفراد أيًّا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم. ونحن الآن نعرف أنه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافًا عظيمًا، وأن العقل لا يمنع من هذا الاختلاف لأنه لا تأثير له في الجماعات، وأن الذي يؤثر فيها إنما هو المشاعر الغريزية.

ومن العوامل الأصلية ما يسهل معه تمييز الجماعات المختلفة العناصر تمييزًا تامًّا، وهو الشعب، وقد ذكرناه مرارًا وقلنا إنه أعظم المؤثرات التي تنبعث عنها أفعال الناس. ونقول: إن له كذلك أثرًا في صفات الجماعات، فالجماعة المؤلفة من أفراد أيًّا كانوا وهم إنكليز تختلف كثيرًا مع الجماعة التي تتألف من أفراد أيًّا كانوا، وهم خليط من الروس والفرنساويين والإسبانيين مثلًا.

أشد مظاهر الافتراق الناشئ عن الوراثة العقلية في كيفية الشعور والنظر في الأمور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الأسباب — وذلك نادر — كيفما اتحدت في الظاهر المنافع التي اجتمعوا لأجلها. حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نوابًا عن جميع العمال في كل أمة، فأدى ذلك دائمًا إلى خلف عنيف، والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ما تريد، تستوي في ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة، فهي تميل بطبعها إلى حصر السلطة وجمعها في يد واحدة وإلى من يجمع تلك السلطة في يده، وأما الجماعة الإنكليزية أو الأمريكية فإنها لا تعرف الحكومة ولا تستعين إلا بهمة الأفراد الذاتية، أول ما تهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة، وأول ما تهتم له الجماعة الإنكليزية الحرية الشخصية. وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديمقراطية.

وعليه تحكم روح الشعب دائمًا روح الجماعة، فهي لها كالدائرة المنيعة التي تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها، ومن هنا ينبغي أن نقرر القاعدة الآتية: تكون الصفات المنحطة في الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية، فحالة الجماعة هي الهمجية وتسلطها رجوع الهمجية، ولا يخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التي لا يحكمها العقل إلا إذا كانت له روح قوية شديدة، وذلك يتأتى بالتدريج.

ويلي الجماعات المتقدمة الجماعات التي لا اسم لها كجماعات الشوارع، ثم الجماعات التي لها اسم، تُعرف به، كجماعات العدول والمجالس النيابية، والذي يوجب اختلاف هذين النوعين غالبًا في انفعالهما هو أن الأولى لا تشعر بتبعة ما نتج عن أعمالها بخلاف الثانية، فإنها تقدر تبعة عملها كما ينبغي.

(٢) القسم الثاني: الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترق الجماعات المؤتلفة العناصر إلى أفناء وطوائف وطبقات، فالأفناء أول المراتب، وهي تتألف من أفراد مختلفين في التربية والحرفة والبيئة أحيانًا ولا جامعة تجمعهم إلا وحدة الاعتقاد، ومن هذا النوع الأفناء السياسية والأفناء الدينية.

والطوائف أرقاها، وهي تتألف من أفراد متحدين في الحرفة، فهم متشابهون في التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين.

والطبقات هي التي أفرادها من مناشئ مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالأفناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف، بل بجامعة المنافع والشبه في حالة المعيشة والتربية كطبقة الأواسط في الأمة وطبقة الزراع ... وهكذا.

ولما كان بحثي في هذا الكتاب قاصرًا على الجماعات المختلفة العناصر، ومن نيتي أن أفرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتابًا خاصًّا، فلا أطيل في بيان صفات هذه الأخيرة وأختم الكلام على الأولى بذِكر بعض أنواعها مثالًا للبقية.

الفصل الثاني

الجماعات الجارمة

بعد أن يمضي زمن على الجماعة وهي في هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الإلقاء في نفسها، ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفيًّا كيفما كان الحال، وإنما جريت في الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لأني أقرأه في بعض كتب علماء النفس الحديثة. نعم إن بعض أعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هي لكن كما يعتبر عمل النمر الذي يلتهم الهندي بعد أن يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه.

تصدر الجرائم عن الجماعة غالبًا بسبب تحريض قوي ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها أنهم قاموا بواجب كان مفروضًا عليهم، وهذا ليس شأن الجناة في الأحوال الاعتيادية، وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان.

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لوني) مدير سجن (الباستيل)، وواقعة الحال أنه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار إليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب، وهذا يشير بشنقه وذاك بضرب عنقه وثالث بربطه في ذيل فرس ... وهكذا. وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحدًا من الجماعة، إذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب، فهلل الجمع بالموافقة. قال راوي الواقعة: «وكان المضروب طباخًا خاليًا من العمل ويقرب من أن يكون بهلولًا ذهب إلى (الباستيل) لينظر ماذا يجري هناك. فلما سمع الإجماع ظن أن الفعل مما تقضي به الوطنية، وأنه ينال وسامًا إذا أعدم ذلك الوحش. ثم ناولوه سيفًا ضرب به عنق المدير، وكان غير مشحوذ فلم يقطع، فألقاه وأخرج من جيبه سكينًا صغيرة ذات مقبض أسود واستعان بخبرته في تقطيع اللحوم، فساعده الحظ وأتم عمله.»

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة، فقد انقادت هنا إلى تحريض قوي بالإجماع عليه، واعتقد القاتل أنه أتى عملًا شريفًا اعتقادًا مَكَّنَه من نفسه ذلك الإجماع، وقد يكون مثل هذا العمل آثمًا بحكم القانون لكنه ليس كذلك في حكم علم النفس.

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهي بعينها الصفات التي شاهدناها في غيرها، من قابلية التأثر، والتصديق والتقلب والتطرف في المشاعر طيبة كانت أو رديئة، والتخلق ببعض الأخلاق الخاصة ... وغير ذلك.

وستظهر لنا هذه الصفات كلها في إحدى الجماعات التي تركت في تاريخنا أقبح ذكرى محزنة وهي جماعة شهر سبتمبر،[١] وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمي) شبه عظيم، وإني أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين)، فهو الذي استخلصها من المفكرات التي كتبت أيام حدوثها.

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرِّض على تخلية السجون بقتل من فيها، وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غيره،[٢] فالذي يهمنا هو أنه وجد تحريض قوي تأثرت به الجماعة التي وليت المقتلة.

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم أشتات، فهي تمثل الجماعة المختلفة العناصر أكبر تمثيل إذ لم يكن فيها الغوغاء إلا نفر يسير، والباقون من أصحاب الحوانيت والصناع في كل حرفة وكل مهنة؛ من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم ... كلهم متأثرون بالتحريض الذي وقع عليهم، كالطاهي الذي مر ذكره، وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطني، وقد قاموا بعملين، فكانوا قضاة وجلادين، ولكنهم لم يروا أنفسهم من الجناة أبدًا، بل وقر في نفوسهم أنه واجب من أكبر الواجبات، وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة، هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها، ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيرًا، فقررت أولًا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك، وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون في نظر كل وطني جناة بمقتضى صناعتهم، وأن يكون القتل جملة من دون احتياج إلى حكم خاص. وأما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم أو شهرتهم. فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء، فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل، والتوحش يزداد فظاعة وعنفًا في المجامع، إلا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن في الجماعات، ولذلك كان يوجد في تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ في شدته تلك القسوة الهائلة.

كان لأولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم، من ذلك أن أحدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة، فشرع في قتل السجان لولا شفاعة السجناء، وكانوا إذا برَّأت المحكمة التي أقاموها واحدًا من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقًا طويلًا، ثم انقلبوا يقتلون غيره أكداسًا. كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم، يغنون ويرقصون، ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهي فرِحة قَتْلَ الشرفاء. وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن أحد الموكلين بالتقتيل شكا من أن النساء لا يشاهدن القتل لبُعدهن عن مكانه، وأن القليل من الناس هو الذي ينال حظ ضرب الشرفاء، فصوب الجميع شكواه وقرروا أن يمشي المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين، وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم إلا بظاهر السيوف حتى يطول أمد العذاب. وكان فريق يأتي بالمتهمين عراة كما ولدتهم الأمهات، ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة، فإذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم.

ومع ذلك كنت تشاهد الأمانة لا تزال ملازمة للقاتلين، فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئًا من نقود المقتولين وحليهم، بل يقدمونها لِلَّجنة.

وكانت بساطة التعقل التي انفردت بها روح الجماعات تظهر في أفعالهم، من ذلك أنهم لما فرغوا من قتل الألف والمائتين أو الألف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم أن السجون الأُخَر تضم أناسًا لا فائدة منهم، وأن الأولى إعدامهم، فسارت الجماعة إلى الموافقة على هذا الرأي، وكان من في السجون الأخر أناسًا من الشحاذين والهمل (المتشردين) والأولاد. فرأت الجماعة أنه لا بد من وجود أعداء للأمة بينهم، كامرأة رجل كان قد قتل نفسًا بالسم إذ قال بعضهم: «لا بد أنها متغيظة من وجودها في السجن، ولو تمكنت لوضعت النار في باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك، بل قالته، إذن حق عليها الإعدام.» سرى هذا القول في النفوس كالحجة الناصعة وهرولت الجماعة، فقتلت كل من كان في تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلامًا ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة، وقالوا في قتلهم إنهم إذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الأمة، فالواجب التخلص من شرهم.

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا في الراحة واعتقدوا أنهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها، ورغبوا إلى حكومة ذلك الزمن أن تكافئهم، ومنهم من طلب وسامًا.

وفي تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتي قدمناها، وسنرى كثيرًا غيرها ما دام سلطان الجماعات ينمو ويعظم، وسلطان الحكومة ينزوي ويضعف.

هوامش

(١) هي كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية في باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الأرجح، أصله طبيب انقلب صحافيًّا دمويًّا صرفًا، فكان يطلب إعدام مائتين وسبعين ألف نفس مدعيًا أن في ذلك فداء الوطن.

(٢) هو (مارات) على ما ذكر في معاجم التاريخ كما تقدم.

الفصل الثالث

العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

لما كان لا يتيسر لنا ذِكر جميع أنواع العدول في هذا الكتاب رأينا أن نقتصر على أهمها، وهم العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات، وهم أحسن مثال يُمثَّل به للجماعات المختلفة العناصر التي لها اسم خاص. وإذا بحثنا عن الصفات التي لها نجد قابلية التأثر، وسيادة المشاعر الغريزية، وضعف التأثر بالمعقول، والانصياع إلى القواد … وهكذا، وسنبين أثناء بحثنا في هذه الجماعات بعض الغلطات التي يرتكبها من لم يكن خبيرًا بعلم روح الجماعات لما في ذلك من الفائدة.

نجد أولًا في العدول المحلفين من حيث القرارات التي يصدرونها مثالًا حسنًا يبين أن تأثير الأذكياء الذين يوجدون في جماعتهم ضعيف؛ لما تقدم من أنه لا تأثير للعقل المستنير في رأي الجماعة إذا كان في موضوع غير فني، وأن رأي جمع من العلماء وأهل الفن في موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيرًا مع رأي جمع من البنائين أو البدالين في ذلك الموضوع.

كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتني في كثير من الأوقات بانتقاء العدول من المستنيرين، فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الأدب وأمثالهم، وهم الآن ينتخبون خصوصًا من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين. وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون إذ دل الإحصاء على تشابه القرارات وإن اختلف تشكيل جماعة العدول، وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام، وإليك ما كتبه موسيو (بيراردي جلاجر) أحد رؤساء محاكم الجنايات في مفكراته: «أصبح الآن اختيار العدول في يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية وأحوال الانتخابات، وصارت أغلبية العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن. ومن مستخدمي بعض المصالح، ومع هذا لم تتغير روح

العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه؛ لأن جميع الأفكار تمتزج بجميع المهن في وظيفة القضاء، ولأن كثيرًا من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث في الإيمان، ولأن الطبقة الدنيا لا تخلو من أهل المروءات».

والذي يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها، ولا غرابة في هذا الضعف لأن المحامين والقضاة لا يعرفون في الغالب روح الجماعات ومنها العدول. والدليل على ذلك ما ذكره الرئيس المشار إليه من أن (لاشو) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين. وقد برهنت التجارب — وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان — على أن ذلك العمل كان عقيمًا، حتى إن النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة في باريس، ولم تتغير القرارات كما أشار إليه موسيو «جلاجو»، فلا هي أحسن مما كانت عليه ولا هي أردأ منه.

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيرًا ولا يتأثرون بالمعقول إلا قليلًا، فهم كما قال أحد المحامين «لا يثبتون أمام امرأة ترضع طفلها أو أمام صغار يتامى إذا نظروا إليهم.» قال موسيو (جلاجو): «ويكفي أن تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول.»

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التي يخشون هم منها، وهذه الجرائم هي التي تهم الهيئة الاجتماعية، ورحماء بمرتكبي الجرائم التي مصدرها الغيرة والحب … وهكذا.

فقلما يقسون على البنات الأمهات اللاتي يقتلن مواليدهن، ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار؛ وذلك لأن العدول يشعرون أنه لا خطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية، وأنه ما دام القانون لا يحمي البنت التي هجرها مَن خدعها يكون نفع جنايتها أكبر من ضررها؛ لأن في ذلك للخداع مزدجرًا.[١]

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ. لاحظ الرئيس (جلاجو) أنهم ديمقراطيون في جمعهم شرفاء في عواطفهم؛ فالاسم، والحسب، والثروة الطائلة، والشهرة، والاستعانة بمحام ذائع الصيت، وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به … كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوي في يد المتهمين.

أراد بعضهم بيان الطريقة التي ينبغي استعمالها في هذا المقام، فوصف أحد محامي الإنجليز، وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه أمام محاكم الجنايات، ومما قاله: أول ما يجب على المحامي اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول، والإقلال من

التقرير، والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادية، كما هو الشأن مع بقية الجماعات كان يترافع وهو يرقب حركات العدول، وتحين مناسبة الوقت، فكان يقرأ في وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتي من الفراسة والتجارب ليعرف ما ينبغي بعد ذلك، وكان يتفرس أولًا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم في خطابه الخطوة الأخيرة التي تمكنه من انحيازهم إليه، ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه، ويجتهد في استكناه سبب ميله عن المتهم، وهذا أدق ما في عمل المحامي، لأن الأسباب التي تبعث الرغبة في الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة، بقطع النظر عن كون الحكم عدلًا أم ظلمًا.

ولقد تلخص فن الخطابة في هذه الأسطر على قلتها، وبان أن السبب في عدم تأثير ما حضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب إلى تغيير الكلام طبقًا لأثره في نفوس السامعين.

وليس من الضروري أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول، بل يكفيه اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية، وبهم يتكون رأي الأغلبية. فالذي يقود العدول إنما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك في كل الجماعات. قال المحامي الذي مر ذكره: «عرفت بالتجربة أنه متى حان وقت إصدار القرار يكفي واحد أو اثنان من أهل العزيمة في الرأي لإقناع البقية.»

فالواجب إذن إقناع هذين الاثنين أو الثلاثة باستعمال الحذق فيما يلقى في نفوسهم، وأول ما ينبغي فعله هو الاجتهاد في إعجابهم؛ لأن الرجل في الجماعة إذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع وقَبِل بالسهولة الأدلة التي تعرض عليه كيفما كانت، فقد قرأت في بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية: «من المعروف عنه أنه كان في مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم أنهم أصعب مراسًا من البقية وأنهم أهل النفوذ فيهم، وكان يتمكن غالبًا من التغلب عليهم، واتفق له مرة في الريف أنه لحظ بين العدول واحدًا استعمل لإقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة أرباع الساعة على غير جدوى، وكان جالسًا في أول الصف الثاني وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب، وبينما لاشو مندفع في البيان والبلاغة تتدفق من فِيهِ إذا به قطع الكلام فجأة والتفت إلى رئيس المحكمة قائلًا: «سيدي الرئيس أتسمحون فتأمرون بإسدال الستار الذي أمامنا، فإن الشمس تخدش عيني حضرة العدل السابع»، فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر، وقد صار من صف الدفاع.»

قام في هذه الأيام كثير من الكتاب، ومنهم الفطاحل، وشددوا النكير على نظام العدول مع أن وجودهم هو الضمان الوحيد الذي يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها،[٢] ومنهم من يذهب إلى وجوب حصر اختيار العدول في طبقة المستنيرين، ولكنا أقمنا الدليل على أن قراراتهم في هذه الحالة لن تختلف مع التي تصدر الآن. ومنهم من يتذرع بالخطأ الذي يقع من العدول فيذهب إلى تبديلهم بالقضاة، ونحن لا ندري كيف غاب عنهم أن ذلك الخطأ الذي بالغوا في نسبته إلى العدول إنما سبقهم به القضاة، لأن المتهم لا يمثل بين يدي أولئك إلا بعد اعتباره جانيًا من كثير من هؤلاء، من قاضي التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام. ألا يرى أنه لو سُلم الحكم النهائي عليه إلى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول إلى إظهار براءته. إنْ يخطئ فقد أخطأ القضاة من قبلهم، فالوزر على هؤلاء وحدهم في كل خطأ قضائي مفزع، كالحكم الذي صدر أخيرًا على الطبيب (فلان) إذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروفين بقصر العقل، لأن شابة تكاد تكون من البله اتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكًا، ولولا ثورة الرأي العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لأرسل إلى سجن الأشغال الشاقة. ظهر في هذه الحادثة أن خطأ الحكم كان فاحشًا بمقدار إجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه، وكان القضاة أنفسهم مقتنعين بذلك، لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم إلى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البريء. والحاصل أنه متى كانت الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين إلى الأخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم أن الذي حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل. وليت شعري من يكون المخطئ الحقيقي حينئذٍ: العدول أم القضاة. يجب أن نحرص على العدول حرصنا على النفيس، فربما كانوا هم الجماعة التي لا يمكن أن يقوم الفرد مقامها، وهم الذين يتيسر وحدهم أن يخففوا من شدة القانون، فهو بمقتضى كونه واحدًا لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ. أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب، ولا يعرفون إلا النص وهم قساة بمقتضى صناعتهم. فلا يفرقون في الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هَجَرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها. لكن العدول يشعرون بفطرتهم أن تلك الفتاة التي خُدعت أقل إجرامًا من الذي خدعها ولا سلطان للقانون عليه، وأنها جديرة بكل عطف وحنان.

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الأخرى، ولكني لم أوفق إلى معرفة حالة أكون متهمًا فيها بجرم، وأفضل القضاة على العدول ليحكموا

فيها؛ لأن بعض الأمل في البراءة أمام هؤلاء، والأمل ضعيف أمام أولئك. حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف، فقد تلين الأولى ولكن الثانية لا تلين أبدًا.

هوامش

(١) مما تجب ملاحظته أن هذا الفرق الذي جاء به العدول — لا عن قصد — بين الجرائم المضرة بالهيئة والتي لا تكاد تضرها لا يخلو من صواب؛ إذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقًا. غير أن الغالب على واضعي قوانيننا وعلى قضاتنا هي فكرة الانتقام التي كانت سائدة في زمن الشرائع القديمة. ودليلنا على هذا الميل في قضاتنا أن الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذي يبيح إيقاف التنفيذ، فلا يقضي المحكوم عليه عقوبته إلا إذا عاد فأجرم، مع أن جميع القضاة يعلمون جيدًا أن تنفيذ العقوبة الأولى يجره حتمًا إلى العود كما يؤيد ذلك الإحصاء. (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكأني بالقضاة يعتقدون أنهم إذا أفلتوا محكومًا عليه لا يكونون قد انتقموا للأمة، فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الإجرام على عدم الانتقام.

(٢) المحاكم عندنا هي المصلحة الوحيدة التي تكاد تكون لا مراقبة على أعمالها، ومع ما أتته الأمة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الإفراج) الذي تفتخر به الأمة الإنكليزية. نحن قد نفينا جميع الظالمين، ولكنا أقمنا في كل مدينة قاضيًا يتصرف في شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء. قويضي تحقيق خرج حديثًا من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفرة على سجن أعلى الوطنيين منزلةً كما يريد لمجرد الشبهة منه في إجرامهم. وليس من يحاسبه على عمله. وله القدرة على إبقائهم في سجنهم ستة أشهر، بل سنة بحجة التحقيق، ثم يخلي في سبيلهم ولا ضمان لهم عليه، ولا يكلف لهم باعتذار، يفعل ذلك بمقتضى (أمر القبض)، وهو مساوٍ (لخطاب السجن) الذي عرفه آباؤنا الأولون، غير أن هذا الأخير كان لا يجوز استعماله إلا للعظماء من الأكابر، وأما الأول فهو اليوم في يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جدًّا عن أن يكون الأكثر تهذيبًا والأكبر استقلالًا.

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب، أعني المجامع التي تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة. ولما كان عملها محصورًا في دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين، لا يظهر فيها إلا بعض الصفات التي تقدم بيانها. فالذي يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل، وفقدان ملكة النقد، وسرعة الغضب، والتصديق، والسذاجة، ويرى في قراراتها أثر القواد وأثر العوامل التي مر ذكرها، أي التوكيد، والتكرار، والنفوذ، والعدوى.

فلنبحث في طريقة إقناعها لأنَّا إذا عرفنا أنجع الوسائل في ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح.

أول صفة يجب أن تكون للمترشح هي النفوذ، ولا يقوم مقام النفوذ الذاتي إذا فُقد إلا النفوذ المكتسب من الثروة، حتى إن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التي تؤدي إلى النجاح كثيرًا في هذا الباب.

ولا غنًى للمترشح عن النفوذ لأنه العدة الكبرى التي تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه، والسبب في كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم، وإذا اختاروا في النادر واحدًا من طبقتهم، فإنما ذلك لكي يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائمًا، فينزع هذا إلى مخالفته متخيلًا أنه يصير بذلك سيدًا عليه لحظة من الزمان.

إلا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه في الانتخاب؛ لأن الناخب يجب أن يتملق ويمنَّى بنيل ما يصبو إليه من الرغبات، فينبغي أن يساق إليه من التملق ما يعجزه حمله، وأن لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود

والأماني، فإن كان عاملًا فكل ذم في معلمه قليل. أما المترشح المزاحم فإنه يجب أن يدخل إليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لإثبات أنه أخس الناس وأنه مجرم أثام. ومن البديهي أنه لا محل لإقامة دليل ما على ذلك، فإن كان الخصم لا يعرف روح الجماعات مال إلى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكيد، ومن ثَم يفقد كل أمل في النجاح.

أما البرنامج الذي يحرره المترشح ببيان ما ينوي من الأعمال فينبغي أن لا يكون صريحًا حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه، لكن يجب أن يطيل في البرنامج الشفهي ما استطاع، ولا خوف عليه من الوعد بإجراء أعظم الإصلاحات؛ فإن ذلك يؤثر حالًا في نفوس الناخبين، وهو في حل منه آجلًا؛ إذ القاعدة المطردة أن الناخب لا يبحث أبدًا في هل المنتخب جرى طبقًا لتصريحاته التي كانت السبب في انتخابه.

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الإقناع التي تقدم ذكرها هي في جماعات الانتخاب. بقي علينا أن نذكر الألفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحري في النفوس. الخطيب الذي يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء، فلمثل (رأس المال الدنس) و(أولئك المحتالين الأدنياء) و(العامل الجليل) و(جعل الأموال شائعة بين الجميع) ... وهكذا، لمثل هذه الألفاظ تأثير لا يزال كبيرًا، وإن كان الناس قد صاروا يمجونها، فإذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لإيجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة، كان نجاحه باهرًا وفوزه محتمًا. والذي أوقد نار الثورة الدموية في إسبانيا سنة ١٨٧٣ إنما هو لفظٌ من تلك الألفاظ السحرية ذات المعاني المضطربة التي يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهي. ولقد يحسن بنا إيراد كيف كان ذلك نقلًا عن أحد كتاب ذاك الحين، قال: «ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية، فأرضاهم مجلس الأمة وقرر بالإجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه؛ لأن الصنيعة كانت قد أخذت بلب الناس أجمعين، فسكروا بخمرتها، وغالوا في طلاوتها، وقالوا: لقد قامت في الأرض مملكة الفضيلة والسعادة.» وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة أن خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادي)، وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله: (سلام على الجمهوري الاتحادي). أما المعنى الذي كان يحضرهم من هذه التسمية، فمنهم من كان يذهب إلى أنه عبارة عن إطلاق الأقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال، ومنهم من كان يظن أن النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة

في أمريكا، وآخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم في البلاد، والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت، وأن الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية. ونادى الاشتراكيون في برشلونة وفي الأندلس باستقلال كل قرية بنفسها، وذهبوا إلى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الإسبانية، كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم، وقالوا بإلغاء الجيش والشرطة، ولم يمض إلا قليل حتى أخذت الثورة تمتد في الأقاليم الجنوبية من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى، فكانت كل بلدة فرغت من إعلان استقلالها تعمد إلى تخريب الأسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد، ولم تبق نزلة حقيرة إلا نزعت إلى الاستقلال بنفسها، وحل محل الاتحاد تمزُّق في الأقاليم علامته التوحش والنار والدماء، فأقيمت المذابح في كل صقع ونادٍ.

أما تأثير المعقول في جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه إلا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجري في اجتماعات الانتخابات؛ لأنها لا تحتوي على شيء غير تناول التوكيدات المتناقضة والشتائم والمخازي، ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان. وإذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لأن أحد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقي على المترشح سؤالًا يعجزه الجواب عنه، وذلك يلذ دائمًا للسامعين، إلا أن هذه اللذة لا تدوم طويلًا لأن صوت السائل لا يلبث أن يغيب في صخب المعارضين. وإني ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئًا مما يجري في الاجتماعات العمومية ليكون مثلًا على ما تقدم: (أقام بعضهم اجتماعًا وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس، فقامت القيامة وأسرع الفوضويون إلى محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف في وجههم الاشتراكيون، فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء وبائع ذمته وهكذا، وخرج أحد الحاضرين وعينه مورَّمة، وانتهى الحال ببقاء اللجنة في مكانها وسط الهياج والاصطخاب، وتمت الرئاسة للوطني فلان، وأخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة، فقابلوه بالوغد، قاطع الطريق، الدنيء … وهكذا من النعوت، فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها أن الاشتراكيين من البله أو النصابين).

وهذا مثل آخر: (نظم الحزب المنحاز لألمانيا مساء أمس في قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعًا كبيرًا استعدادًا لعيد عمال أول شهر مايو، وتقرر أن يكون الهدوء سائدًا والسكون شاملًا، وقد طعن الوطني فلان على الاشتراكيين بأنهم أوغاد نصابون، وعليه تشاتَم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة إلى الملاكمة، فاشتركت الكراسي والموائد في الخصام … إلخ).

ولا يحسبن القراء أن هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين، وأنه آت من درجتهم الاجتماعية، بل تلك صورة تتصف بها المناظرة في كل جمعية أيًّا كانت حتى التي تتألف من مستنيرين. وقد بينت أن الأفراد في الجماعات يتقاربون إلى حد التساوي في ملكات العقل، ونحن نجد الدليل على ذلك في كل مكان. إليك ما دار في اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلًا عن جريدة الطان الصادرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥: «كلما أوغل الليل ازداد الهياج، ولا أظن أن خطيبًا واحدًا لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه، إذ الصراخ كان يعلو في كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات، هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون، وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين، فترى العصي تهدد الرءوس، والضرب على الموائد كالنغمة، والاصطخاب مقذوفًا إلى المشوشين، هذا يقول: أخرجوه، وذاك يصيح: إلى منبر الخطابة، ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله: هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه، هذا اجتماع وحشي، دنيء، رذيل متعصب، ثم أعلن أنه سيهدمه … إلخ.»

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء، غير أن هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التي توجد في المجامع، وأن آراء الجماعات إنما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الإقناع، والذي يكوِّن الآراء ويجري الانتخاب في الحالة التي تبحث فيها هي اللجان، واللجان يقودها في الغالب بائعوا النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم في تأجيل ثمن ما يشربون. قال موسيو (شيرر) وهو من أكبر أنصار الديمقراطية في الوقت الحاضر: «أتعرفون ما هي لجنة الانتخاب، إنها عبارة عن مفتاح نظاماتنا، وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا أن الذي يحكم فرنسا الآن هو اللجان.»[١]

لذلك ليس من الصعب جدًّا التسلط على اللجان إذا كان المترشح مقبولًا وذا يسار يفي بما يحتاج إليه في مثل ذلك. فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) في مقاطعات عدة.

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ.

وعليه فإني لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام، ولو أن الأمر بيدي لأبقيته كما هو لأسباب عملية تنتزع من بحثنا في روح الاجتماع، فلنذكرها:

لا يسع أحدًا إنكار مضار الانتخاب العام لأنها واضحة كالشمس، فلا يماري في أن المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما

انحطت الدرجة العقلية. وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للأمة، وعظمة المدنية لا تتوقف طبعًا على رأي العناصر الوضيعة التي ليس لها من القيمة إلا كثرة العدد، ومن المحقق أيضًا أن آراء الجماعات خطرة في غالب الأحيان، فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا، وإذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون أن أهواء سيادة الأمة تكلفنا أضعاف ذلك أيضًا.

إلا أن هذه المطاعن القوية نظرًا تفقِد قوتها تمامًا من الجهة العملية إذا فكرنا في قوة الآراء التي لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد، وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التي وجدت في القرون الوسطى من حيث الضعف في كلٍّ. غير أن ما كان لهذه من القوة في ذلك الزمان هو للأولى في هذه الأيام، فهي منيعة حينئذٍ كما كانت أفكارنا في تلك القرون. لنفرض أن رجلًا من أهل الأفكار الحرة أي المطلقة السراح وُجد في القرون الوسطى، أتظن أنه كان يتحرك لمقاومة الأفكار الدينية المتمكنة في القوم بعد أن يرى ما لها من السيادة المطلقة، أو كان يفكر في إنكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت إذا مثلَ أمام قاضٍ يريد إحراقه بالنار بتهمة أنه حازب الشيطان أو ذهب إلى المعبد يوم السبت. إنه لا مناقشة مع الجماعات كما أنه لا جدال مع العواصف، ولعقيدة الاقتراع العام في أيامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية في ذلك الزمان، فترى الخطباء والكُتاب يذكرونه مقرونًا بالتجلة والاحترام مصحوبًا بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر. وجب إذن أن يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية، وللزمان أن يفعل في الجميع فعله على أنه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها في الظاهر، ولقد أصاب موسيو (توكفيل) حيث قال: (ليس لأحد في زمن المساواة اعتقاد في أحد، لما بين الكل من التشابه، غير أن هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لأنهم لا يتصورون أن الحقيقة لا تكون من جانب العدد الأكبر، وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين).

قد يذهب بعضهم إلى أن حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاءات، أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة؛ للسبب الذي قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها، فإن الناس يتساوون في الجماعة دائمًا، وليس رأي الأربعين عضوًا الذين تتركب منهم جمعية المعارف في مسألة عامة أحسن من رأي أربعين سقاء. ولا أظن أن رأيًا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كإعادة الإمبراطورية كان يتغير لو أن المقترعين كانوا كلهم من أهل الأدب

والعلماء؛ لأن الذي يجعل الرجل ذا بصر بالأحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معماريًّا أو طبيبًا بيطريًّا أو طبيبًا أو محاميًا. انظر إلى علماء الاقتصاد عندنا ترهم كلهم من المستنيرين، وأغلبهم مدرسون أو أعضاء في جمعية المعارف، ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبدًا كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود ... وهكذا. ذلك لأن علمهم ليس إلا صورة مخففة من الجهل العام، وكل جهل يستوي أمام المسائل الاجتماعية التي لا حصر للمجهول فيها.

وعلى ذلك إذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علمًا لا نصل إلى نتيجة أحسن مما لو تركناه في يد أهل زماننا؛ لأن أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم، فلا نكون قد ذللنا شيئًا من العقبات التي أمامنا، بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذي تنفرد به الطوائف.

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة، وهو إنما يترجم عن الرغائب والحاجات التي للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عامًّا أو محصورًا في طبقة أو طبقات في جمهورية أو ملوكية في فرنسا، أو في البلجيك أو اليونان أو البرتقال أو إسبانيا. ومتوسط المنتخبين في كل أمة يمثل روح شعبها، وهو لا يكاد يتغير من جيل إلى جيل.

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الأهمية الكبرى. وتلك النظرية الأخرى المشتقة منها، وهي ضعف تأثير النظامات والحكومات في حياة الأمم، إنما تسير طبقًا لأرواح شعوبها. وبعبارة أخرى طبقًا: لما ورثته عن آبائها، وهو ما تمثله تلك الروح، فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم، وتلك الاحتياجات هي الملوك الخفية التي بيدها زمام مآلنا.

هوامش

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادي والشركات هي أشد الجماعات خطرًا من حيث المقدرة، فهي التي تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها، ولذلك كانت أقسى الجماعات يدًا وأكبرها تسلطًا، فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان أن هناك تبعة ترجع إليهم، فهم يضربون في كل صوب آمنين، وما كان يخطر على بال أشد المستبدين عسفًا أن يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التي فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصدًا كما قال (باراس). ظل (روبسبيير) قابضًا على الحكم كله بيده طول الزمن الذي كان ينطق فيه باسم اللجان، فلما اختلف معها بسبب التشدد

في الرأي وانفصل عنها أدركته الداهية. أجل إن حكم الجماعات هو حكم اللجان، أعني حكم القواد، ولن يهتدي الإنسان إلى حكم أشد وأقسى.

الفصل الخامس

المجالس النيابية

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية، وهي تتشابه كثيرًا في صفاتها وإن اختلفت طريقة تكوينها بحسب الأمم والأزمان، ولروح الشعب فيها أثر هو إضعاف تلك الصفات أو تقويتها، إلا أنه لا يمنع من ظهورها البتة. وتتشابه المجالس النيابية في البلاد المختلفة كاليونان وإيتاليا والبرتقال وإسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابهًا عظيمًا، فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات.

النظام النيابي هو أقصى ما تصبو إليه الأمم المتحضرة في العصر الحاضر؛ لأنه يعبر عن فكر سائد في الناس — وإن كان علم النفس يراه خطأً — وهو أن العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت في الأمور بالعقل والرويَّة والاستقلال.

والصفات المميزة للجماعات توجد في المجالس النيابية من بساطة الأفكار، وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأي الغير، والغلو في المشاعر ونفوذ القواد، إلا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات، وإليك بيانها:

أما بساطة الأفكار فمن أهم مميزات المجالس النيابية، فتشاهد عند جميع الأحزاب خصوصًا عند الأمم اللاتينية الميلَ إلى حل المسائل الاجتماعية العويصة بأبسط المبادئ النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الأحوال. ومن الواضح أن المبادئ تختلف باختلاف الأحزاب، لكن الرجل في الجماعة يرمي دائمًا إلى تقدير تلك المبادئ بأكثر من قيمتها ويذهب فيها إلى آخر ما تؤدي إليه من النتائج، لذلك كانت الأفكار التي تمثلها المجالس النيابية هي المتطرفة.

وأكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة (اليعاقبة) أيام ثورتنا الكبرى، فقد كانوا كلهم من أرباب المذاهب وكلهم من المناطقة، وكانت رءوسهم ملأى بالكليات

المقولة بالتشكيك، لذلك كان همهم تطبيق المبادئ المقررة من غير التفات لظروف الأحوال، فصح ما قيل عنهم من أنهم عبروا الثورة ولم يروها. فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشدًا وظنوا أنهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية جديدة، ويرجعون بالمدنية الراقية إلى مدنية كانت للأمة قبل تطورها الحالي، كذلك كانت الوسائل التي استعملوها في تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل، فإذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف في تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعًا واحدة وإن كانوا فرقًا شتى.

وأما التأثر بالرأي فقابلية المجالس النيابية له شديدة، والتأثير يأتي من قِبل القواد ذوي النفوذ كما هو الشأن في الجماعات كلها، إلا أن لقابلية المجالس النيابية في هذا الباب حدودًا واضحة يجب ذِكرها.

فلكل عضو رأي ثابت في المسائل المتعلقة بإقليمه لا يمكن زحزحته عنه ولا تؤثر فيه حجة أو دليل، فلو بُعث (ديموستين) ما أمكنه أن يقنع عضوًا بعدم وجوب حماية المهن التي لبعض أصحابها النفوذ الأول في الانتخابات، ذلك لأن التأثير الذي وقع عليه أولًا من الناخبين أوجد له رأيًا ثابتًا، وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه. ولعل أحد نواب مجلس العموم الإنكليزي ممن طال عهدهم فيه كان يشير إلى تلك الأفكار التي رسخت من قبل في ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب؛ حيث قال: «سمعت مدى خمسين عامًا قضيتها في (ويستمنستر) آلافًا من الخطب، فالقليل منها حملني على تغيير رأيي، ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملني على تغيير صوتي عند الاقتراع.»

وإذا دارت المناقشة في مسألة عامة كإسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة … وهكذا، تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد، لكنه لا يساوي ما لهم في الجماعات الاعتيادية؛ إذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر، فيصبح الأعضاء بين مؤثرين متضادين؛ ولذلك يترددون، فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه، كأن يقبل في القانون نصًّا يهدم المبدأ الذي أقامه عليه. مثال ذلك: الإقرار على قانون يبيح لأصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم ثم الإقرار في الجلسة ذاتها على تعديلٍ يجعل هذا الحق أثرًا بعد عين.

وضح مما تقدم أن لكل مجلس في كل دور أفكارًا ثابتة وأخرى غير ثابتة، ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هو المسائل العامة، كان التردد في الآراء هو الغالب لما يجتمع في نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد في المجالس.

على أن القواد هم أصحاب الكلمة في أغلب المسائل التي ليس للأعضاء فيها رأي ثابت من قبل. وضرورة أولئك القواد ظاهرة؛ لأنهم يوجدون في كل هيئة نيابية عند جميع الأمم بعنوان رؤساء الفرق، أولئك الرؤساء هم السلاطين في كل مجلس، لأن الرجل في الجماعة لا يستغني عن السيد، ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابة لا تمثل إلا رأي عدد صغير من أعضائها.

والقليل من تأثير القواد في تلك المجالس راجع إلى فصاحتهم، وكثيره مستمد من نفوذهم، برهانه أنهم إذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم.

وهذا النفوذ شخصي لا دخل فيه للاسم والشهرة. ومن غرائب الأمثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) في عرض كلامه في مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذي كان عضوًا فيه، قال:

> لم يكن لويز نابليون شيئًا مذكورًا قبل أن يتم له السلطان بشهرين.
>
> ارتقى (فكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحًا، بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس پايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله. قال لي (فولايل) عن (پايات) إنه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو أكبر خطباء فرنسا، كذلك (إدجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر، فإن صيته ذاع قبل افتتاح المجلس، فلما جاء إليه تخلفت عنه شهرته.
>
> والمجالس النيابية هي المكان الوحيد في الأرض الذي يضعف فيه نور الذكاء الفائق، فليس هناك للفصاحة قيمة إلا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان، ولا اهتمام إلا بالخدم التي أديت للأحزاب لا للوطن. وإذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و(تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك إلا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة، ولهذا بعد أن زال الخطر شفي الناس من واجب الشكران ومن الخوف معًا.

نقلتُ هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذي اشتمل عليه لأنه يدل على علم ناقص جدًّا بأحوال النفس؛ إذ الجماعة لا تكون كذلك إذا عرفت لقائدها ما قد يكون أداه من الخدم للوطن أو للأحزاب على حد سواء. والجماعة إنما تطيع قائدها موقنة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران.

لذلك إذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم، وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذي كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتي من النفوذ حتى فقد مركزه على إثر بعض الحوادث المالية. كانت إشارة منه تكفي لقلب الوزارة، وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب في الكلمات الآتية: إنا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ما تساويه، وبكوننا لم نضع في مدغشكر إلا قدمًا متزعزعة، وبكوننا غبنا في مملكة كاملة جنوب نهر النيجر، وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص في الديار المصرية، إلا أن نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر أكثر من مصائب نابوليون الأول.[١]

على أنه لا ينبغي تشديد النكير على هذا القائد وإن كان قد كلفنا كثيرًا؛ لأن أكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأي العام، ولم يكن الرأي العام إذ ذاك في المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن. ومن النادر أن يسبق القائد الرأي العام، والغالب أنه يسير خلفه ويتبعه في الخطأ.

للقائد في إقناع قومه وسائل غير النفوذ هي التي ذكرناها مرارًا، ولا بد له في قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من طريق الوجدان، وعرف طريقة الكلام معهم، فينبغي له على الأخص أن يعرف ما لبعض الألفاظ من التأثير الذي يجذب نفوس السامعين، وأن يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التي تقوم بالتوكيد الشديد الخالي من الدليل وبالصور الآخذة المحلاة بالحجج الناقصة، هذه فصاحة موجودة في كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الإنكليزي الذي هو أكثرها اعتدالًا.

قال الحكيم الإنكليزي (ماين): «من السهل أن نقرأ دائمًا مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة، فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير في خيال أهل الديمقراطية المحضة، ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة إذا قدمت لها بألفاظ جذابة، ولو كانت من القضايا التي لم يحققها أحد، وربما كانت لا تحتمل التحقيق.»

يؤخذ من ذلك أنه لا حد لتأثير «الألفاظ الجذابة» المذكورة، وكم أتينا على بيان قوة الألفاظ والجُمل، وما ينبغي أن يختار منها مما يمثل صورًا مؤثرة. وإليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا: «يوم يركب السياسي الأفين والفوضوي السفاك ظَهْرَ باخرة واحدة تقودهما إلى منفاهما في الأراضي الحمية، ذلك هو

اليوم الذي يتحادث فيه الرجلان، ويظهر كل واحد منهما لأخيه ممثلًا إحدى صورتي نظام اجتماعي واحد.»

فالصورة التي يمثلها هذا المقال واضحة، وقد شعر خصوم الخطيب كلهم أنهم مهددون بها، فهم يرون الأراضي الحمية مقرونة برؤية الباخرة التي تقودهم إليها، لأنهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب. هنالك تولاهم الفزع الذي كان يدخل قلوب «المتعاهدين» إذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بمنجلة[٢] الإعدام فيدينون له على الدوام.

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التي لا يجوز في العقل تصورها، فمن ذلك ما أكده الخطيب الذي نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه أحد معارضة تُذكر من أن أرباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت، وأن مديري الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذي يستحقه الفوضويون. لمثل هذه التوكيدات دائمًا أثر في الجماعات، ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد، كما أنه لا حرج عليه وإن تعسف في الطعن واشتد في الهجاء، ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير في السامعين لأنهم إن جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين.

سادت هذه الفصاحة في المجالس النيابية في كل زمان كما قدمنا وهي تشتد في أزمنة الشدة، ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التي كان كبار الخطباء يقولونها في مجالس الثورة، فقد كانوا يشعرون بالحاجة إلى قطع الكلام حينًا فحينًا لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة، ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين، ويقسمون أنهم إما أن يعيشوا أحرارًا وإما أن يموتوا، ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة، ثم يسكن جأشهم فيجلسون.

قد يكون القائد أحيانًا ذكيًّا متعلمًا، ولكن ذلك يكون مضرًّا به في الغالب؛ لأن الذكي يميل إلى بيان ما في المسائل من أوجه التعقيد، ويقبل المناظرة والتفاهم؛ وذلك يؤدي إلى التسامح والإغضاء ويكسر كثيرًا من حدة العقيدة، وحدة العقيدة لازمة للرسل. وكان أكبر القواد في الأمم خصوصًا قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جدًّا، وكان أكبرهم تأثيرًا أشدهم قصرًا في العقل، فإن الإنسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدرًا وهو «روبسبيير»، ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار. قال بعضهم يصفها: «صيغ كلية

جارية على كل لسان وشقشقة في الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعتا في نفس خلوها أكثر من انحطاطها، نفس تكاد لا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع إلا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله: «هل من مبارز؟» وليس هناك رأي ولا تدبير ولا شاردة عنف ممل وشدة مسئمة، فإذا فرغ القارئ من تلك المطالعة المملة شعر بالحاجة إلى قول «أف» كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان).»

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة إذا صدقت عقيدته وقصر عقله، على أنه لا بد لاستجماع ذلك في الإنسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد. وللجماعات شعور كالإلهام يهديها إلى معرفة الرجل الذي أودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته.

إنما ينجح الخطباء في المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التي يقيمونها، وأصدق شاهد على ذلك أنه إذا وقع لأحدهم ما يفقدهم نفوذه فإنه يفقد معه تأثيره، أعني قدرته على إدارة الآراء كما يشاء.

وأما الخطيب المجهول الذي يذهب إلى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه إلا الحجج والأدلة، فلا رجاء له حتى في الإصغاء إليه. وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب، ومن علماء النفس المدققين النائب الذي لا نفوذ له في السطور الآتية: «إذا استوى — الموصوف — على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقًا فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئنًا، وهو يفتخر في نفسه بأنه سيبث عقيدته لتسكين روح سامعيه؛ لأنه وزن أدلته وحررها، وأعد شيئًا كثيرًا من الإحصاءات والحجج، وأيقن أن الحق في جانبه وأن مُعارِضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التي يأتي بها. هكذا يبدأ معتمدًا على صواب رأيه وإصغاء إخوانه لاعتقاده أنهم لا يطلبون إلا السجود أمام الحق. وبينما هو يخطب إذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين، ثم يتقزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب، ويتساءل كيف لا يسود السكون؟ وما السبب يا ترى في هذا الانصراف العام؟ وما الذي يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم؟ وما السبب القوي الذي يحمل ذاك على ترك مجلسه؟ يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته، فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام، ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع، فيزيد الأعضاء في عدم الإصغاء إليه، فيجهر ويهتز، فتزداد الجلبة حواليه، ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة

أخرى ثم يخشى أن يدعو سكوته إلى أصوات (الأقفال الأقفال)، فيرجع إلى خطابته بما فيه من قوة. وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون.»

ومن خواص المجالس النيابية أنها إذا تحرك شعورها وارتقت في الهياج إلى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء، فتغلو إلى النهاية في مشاعرها، وتذهب إلى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف في القسوة؛ إذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعدًا يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة.

والذي يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك إلى أي حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وإن خالف أعز المنافع لدى أفرادها. كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم، ومع ذلك فعلوه غير مترددين ذات ليلة من ليالي «الدستورية»، وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذرًا لهم بالويل والدماء، ولكنهم فعلوا وما خشوا تقتيل بعضهم بعضًا، ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم أنه مسوق إلى الإعدام لا محالة كما يسوق هو اليوم إخوانه إليه، غير أنهم كانوا قد وصلوا إلى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ما وصفنا، فلم يعد هناك من الاعتبارات ما يقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم. إليك ما قاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر: «ما كنا لنريد القرارات التي يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد، ولكن المحنة هي التي كانت تمليها»، وما أصدق ما كتب.

كانت جلسات التعاقد منفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج، قال تاين: «لقد أقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا في ذلك بالحماقيات والجنونيات، بل شرعوا الآثام وقتل الأبرياء وإعدام الأصدقاء، وانضم حزب الشمال إلى حزب اليمين، وقرر معه بالإجماع وسط التصفيق الشديد إرسال (دانتون) إلى المنجلة، وكان رئيسه الطبيعي وموجد الثروة وقائد زمامها ومال اليمين إلى الشمال، فقرر معه بالإجماع وسط التصفيق الشديد أفظع الأوامر التي أصدرتها الحكومة الثورية، وبين أصوات الإعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت ديربوا) و(كوطون) و(روبسبيير)، فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وإبقاءها على منصة الحكم، وهي الحكومة القاتلة التي كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لأنها

كانت تحصده. اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضي الجميع بمساعدة قاتليهم على إعدامهم، ثم في يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة إلى التقطيع، وبعد ذلك بقليل تقدمت إليه أيضًا تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير.»

قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع، والصفات المتقدم ذكرها توجد في المجالس النيابية المتهيجة التي سكرت بخمر فكر من الأفكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع، وقد وصفها على هذه الحال موسيو «سبوللر» وهو شوري لا يشك أحد في صدق أفكاره الديمقراطية وصفًا دقيقًا نذكره للقراء نقلًا عن (المجلة الأدبية) ويرى القارئ فيه جميع المشاعر المتطرفة التي قدمنا ذكرها، وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التي تنتقل بها الجماعات من الضد إلى الضد من لحظة إلى أخرى. قال موسيو «سبوللر»:

> إن التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التي لا نهاية لها أوردت الحزب الجمهوري حتفه، فلقد كان له من السذاجة ما لا يساويه إلا سوء ظنه المطلق، لا يدرك شرعية الأمور ولا يفقه للنظام معنى، ذعر وآمال لا تنتهي، حالتان يستوي فيهما الريفي والطفل، فسكونهما يضارع قلقهما ووحشيتهما تماثل طاعتهما، ذلك شأن المزاج الذي لم يرتب والتربية التي انعدمت، لا يندهشان لأمر وكل أمر يفقدهما الصواب، يرتجفان ويرهقان، وفيهما الإقدام والشجاعة، فيقتحمان النار، ويجفلان من الظل، ويجهلان العلل والمعلولات، ويسارعان إلى الفتور مسارعتهما إلى التهوس. فيهما استعداد للفزع والذهول، ويتخبطان من الإفراط إلى التفريط، فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذي ينبغي أبدًا، ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الألوان، ويتشكلان بكل الصور، أي رجاء في حكومة تؤسس فوقهما.

لكن من حسن الحظ أن جميع الصفات التي أتينا على ذكرها في المجالس النيابية لا تظهر دائمًا؛ لأن تلك المجالس لا تكون جماعات إلا في بعض الأحايين، والغالب أن كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال، ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ما هو حسن للغاية. نعم، إن الذي يضع هذه القوانين إنما هو اختصاصي واحد يحضرها في سكون مكتبته، وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله، ولكن القوانين التي وضعت بهذه الكيفية هي أحسن ما

يشرع، وإنما يكون القانون ضارًّا إذا أدخلت عليه في الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة، ذلك لأن صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائمًا وفي كل مكان. والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع في الأعمال المضرة التي لا يهذبها الاختبار، فالاختصاصي يكون عند ذلك قائدًا وقتيًّا يؤثر في المجالس ولا تأثير للمجلس فيه.

المجالس النيابية هي أحسن الوسائل التي اهتدت إليها الأمم في حكم نفسها وبالأخص في التخلص ما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ما عليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة. وهي على التحقيق أرقى أشكال الحكومات إن لم يكن عند الكافة، فعند الفلاسفة والمفكرين والكُتاب وأهل الفنون والعلماء، وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التي تتكون منها ذروة الحضارة في الأمم.

على أننا إذا نظرنا إليها من الجهة العملية لا نرى لها إلا ضررين كبيرين: الأول تبذير الأموال تبذيرًا لا مناص منه، والثاني الترقي في تحديد الحرية الشخصية.

فأما الضرر الأول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية، فإذا قدم أحد الأعضاء طلبًا لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو في الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا، لا يسع الأعضاء الآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضي إلى تقرير ضريبة جديدة، إذن يستحيل عليهم الرفض. أما نتائج الزيادة في المصروفات فهي بعيدة ولا تأثير لها في أشخاصهم إلا قليلًا، بخلاف ما لو رفضوا الطلب، فإن النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف أمام الناخبين، وما ذلك اليوم ببعيد.

وهناك سبب قوي آخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطرار لمنح المصروفات المحلية؛ إذ لا يجرأ عضو في المجلس على رفض طلبها لكونها في منفعة الناخبين مباشرة، ولأنه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه إلا إذا أقر ما يطلبه زملاؤه لمراكزهم.[٣]

وأما الضرر الثاني وهو التدرج في تقييد الحرية الشخصية تدرجًا قهريًّا كذلك فهو ضرر محقق، وإن كان أقل وضوحًا من الأول. وهو نتيجة القوانين العديدة التي لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تمامًا لبساطة أفكارها، ولكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين إلا قيودًا.

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لأن إنكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع أن نظامها النيابي أكمل النظامات لأن النائب الإنكليزي أكبر النواب استقلالًا أمام

ناخبيه، وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد إلى أن الزيادة الظاهرية في الحرية الشخصية لا تلبث أن تتبع بنقص حقيقي فيها. ثم عاد إلى هذه النظرية في كتابه الذي سماه (الفرد والحكومة)، ومما قاله: «جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذي أشرت إليه، فما أسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمي إلى تحديد الحرية الشخصية، وذلك من طريقين: الأول أن كل سنة قد أربت على سابقتها في كثرة اللوائح التي تلزم الأفراد بواجبات كانوا أحرارًا منها، وتفرض عليهم أعمالًا كانت مباحة إن شاءوا فعلوها وإن شاءوا أهملوها. والثاني زيادة الضرائب العامة التي يجب على الأفراد القيام بها، وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد في المال الموكول صرفه إلى مشيئة الموظفين العموميين.»

وهذا الترقي في تحديد الحريات يظهر في جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر)، وهي أن أحداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتمًا زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها، ثم هو يقوي نفوذهم، ومآل أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين؛ لأن طائفتهم هي التي لا ينالها أثر التقلبات المستمرة التي تطرأ على حكومة البلاد؛ ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها في الوظائف، فهي الطائفة الوحيدة التي لا تبعة عليها من أعمالها ولا شخصية لأحد في مجموعها، وهي باقية على الدوام، ومن المعلوم أن أشد صور الاستبداد هي التي اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث.

إن الاستمرار على سَن هذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتي تحيط بكل حركة من حركاتهم وإن صغرت بسور من الإجراءات (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمل الذي لا قيد فيه، لكن الأمم قد خدعت في خيالها فحسبت أن الإكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة، وصارت تقبل كل يوم قيدًا ثقيلًا.

على أنها لا مهرب لها من نتيجة هذا الرضا، فإن التعود على احتمال النير كل يوم يفضي بها إلى تطلبه وفقدان ملكة الإقدام وقتل العزيمة، فتصبح حينئذٍ أثرًا بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا إرادة ولا صلابة ولا قوة.

وإذا فقد الإنسان المقدمات في نفسه اضطر إلى طلبها في غيره، وكلما ازداد عدم اهتمام الأفراد وضعفهم اشتدت سطوة الحكومة وقويت شوكتها بالضرورة، هنالك تضطر إلى إبدال إقدامهم على الأعمال بإقدامها والقيام مقامهم في الأخذ بيد المشروعات كلها والتداخل في تنظيم سير الأفراد دونهم لأنهم أضاعوا ملكة ذلك كله، وتصبح

الحكومة مكلفة بأن تعمل كل شيء وتدير كل شيء وتحمي كل شيء فتصير إلهًا قادرًا، إلا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الإله لم تكن قوية ولم تدم إلا قليلًا.

والظاهر أن الترقي في تقييد الحريات عند بعض الأمم التي تظن أنها متمتعة بها لما هي فيه من الإطلاق الصوري ناشئ من هرمها كما ينشأ عن هرم أي نظام كان، وذلك نذير دور الانحطاط التي لم تنج منه مدنية حتى الآن.

وإذا قسنا الحاضر بالماضي ورجعنا إلى العلامات التي تبدو من كل صوب، حكمنا بأن عددًا كبيرًا من مدنياتنا الحاضرة قد وصل إلى أقصى حدود الهرم الذي هو طليعة الانحطاط، والظاهر أنه لا بد لجميع الأمم من عبور هذه السبيل؛ لأن التاريخ يروي لنا أنه دور كثيرًا ما تجدد.

ولقد يسهل بيان الأدوار التي تتقلب فيها المدنيات بقول موجز، وهو الذي نريد أن نختم به هذا الكتاب، فلعل فيه توضيحًا لأسباب قوة الجماعات.

إذا سبرنا المدنيات التي سبقت مدنيتنا في حالتيها الرقي والانحطاط فما الذي نعثر عليه؟

نعثر في فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الأجناس جمعتهم عفوًا الهجرة والإغارات والفتوحات، ولكونهم اختلفوا في المحتِد وتباينوا لغة ودينًا لم يكن بينهم من الرابطة العمومية إلا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها. وفي تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بأرقى صورها، فلها منها الائتلاف الوقتي، والشجاعة والضعف، والاندفاع والقسوة، وعدم ثبات شيء من ذلك، إن هم إلا قوم متوحشون.

ثم دار الزمان فأدى وظيفته، وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئًا فشيئًا، وبدأت أجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض، وتكون شعبًا أي تركيبًا ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم. هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الأمة أن تخرج من دائرة الهمجية.

على أنها لا تخرج منها إلا إذا تكوَّن لها مقصد عام تشخص إليه، وذلك لا يتم إلا بعد مجهودات طويلة، ومغالبات متجددة على الدوام، وبدايات يخطئها الحصر. وسواء كان المقصد العام ألوهية روما أو تعظيم أثينا أو نصرة الله، فهو يكفي لتوحيد أفكار أفراد الأمة وهي في دور التكوين، هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون، وينجر الشعب وراء مقصده ويصل إلى ما ينيله الأبهة

والجلال والقوة والإعظام. نعم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة، إلا أنه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوي، أعني روح الشعب، فهي التي تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظامًا مسنونًا.

فإذا أتم الزمان صنعه الإيجادي يبدأ بصنعه الإعدامي الذي لم ينج منه عابد ولا معبود، فتقف المدنية عند وصولها إلى حد معين من الشوكة والتشعب، ومتى وقفت أسرع إليها الانحطاط لا محالة، فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الأجل.

علامة تلك الساعة التي لا مفر منها تكون دائمًا ضعف اليقين بالمقصد الذي اتكأت عليه روح الشعب، وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التي كانت تستمد حياتها منه.

كلما انزوى خيال الشعب فَقَدَ هو علة امتزاجه، وداعي وحدته، وموجِد قوته، وتمت شخصية الأفراد، وعظم الذكاء فيهم، غير أن ذلك يصطحب بحلول الأثرة الشخصية المفرطة محل الأثرة القومية.

ووراؤه انطماس الأخلاق، وضعف القدرة على العمل، ويصبح ذلك التركيب الذي كان يكون أمة — أي وحدة وإن شئت فقل كتلة — جمعًا مؤلفًا من أفراد غير مؤتلفين، لا رابطة بينهم إلا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات. ومتى وصل الناس إلى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء إلى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا في طلب من يقودهم في جميع أعمالهم وإن صغرت، فتأتي الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شيء.

وإذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الأمة، فتعود خليطًا من الناس كلٌّ يعمل على شاكلته، وترجع إلى ما كانت عليه في بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية، فلا شعور، ولا أمل، هنالك تنعدم أساطين المدنية، وتمسي هدفًا لحوادث الاتفاق، وتصير العامة سلطانة في الناس، وتبدو طلائع المتوحشين، وقد يلوح على المدنية أنها باقية في بهائها لأن محياها لا يزال يضيء بما أكسبته الأجيال الطويلة من البهجة والرواء، ولكن الحقيقة أنه بناء أكله السوس وفَقَدَ دعائمه واستعد للسقوط بأية عاصفة.

فمن همجية إلى حضارة وراء مقصد في الخيال، ومن حضارة إلى انزواء، فموت حين يضمحل الخيال، هذا مدار حياة الأمم.

هوامش

(١) لعل المؤلف يشير إلى موسيو كليمانسو الذي سمي هدام الوزارات، ولو تأخر صدور هذا الكتاب إلى الآن لغير المؤلف رأيه في الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع في رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها، وله في السياسة العامة مقام كبير (م).

(٢) آلة إعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد.

(٣) ذكرت جريدة (إيكونوميست) في عددها الصادر بتاريخ ٦ أبريل سنة ١٨٩٥ بيانًا غريبًا للنفقات التي تتكلفها تلك المصالح المحلية في سنة واحدة، وخصوصًا السكك الحديدية، فكان كما يأتي: الخط بين (لانجاي) وسكانها (٣٠٠٠) نسمة، وهي منزوية في أحد الجبال و(پوى) خمسة عشر مليونًا. والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و(كاستيل سازاران) سبعة ملايين، والخط بين (أوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و(سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين. والخط بين (پراد) وكفرة (أوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين ... وهكذا. وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التي تقرر إنشاؤها في سنة ١٨٩٥ وحدها، ولم يكن لها منفعة عامة مطلقًا، تسعين مليونًا، وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليونًا بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العموم. ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدي إلى الإفلاس، وقد وصل إليه كثير من الممالك في أوروبا مثل البرتقال واليونان وإسبانيا وتركيا، ومنها ما أصبح قادمًا عليه مثل إيتاليا، إلا أنه لا داعي للاهتمام كثيرًا بما ذكر؛ لأن الناس قبلوا نقص الفائدة التي تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار أربعة الأخماس من دون امتعاض كبير. وهي تفاليس محكمة التدبير تسمح لأممها بإصلاح ميزانياتها، على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب أشد وأنكى. وقد دخلنا في زمن التفكك والتحلل العام، فعلينا الرضا بالعيش يومًا بيوم، وأن لا نهتم بالغد لأنه ليس في ملكنا.